

اقرأ

احمد زکی صفوت

عمر بن عبد العزیز

دار المعارف بمصر

عمر بن عبد العزيز

احمد زکی صفوت

عمر بن عبد العزیز

۶۵

اقرا

دار المعیارف للطباعة والنشر بصر

اقرأ ٦٥ — أبريل سنة ١٩٤٨



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بصر

نسبه

هو ابو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن العاص
ابن أمية بن عبد شمس ، وأمه ليلى أم عاصم بنت عاصم بن
عمر بن الخطاب .

وإذ كان سليل الفاروق رضى الله عنه من جهة أمه فقد ورث
منه كثيراً من شمائله الشماء ، ومناقبه الغراء : من إثارة الحق ومناصرة
العدل والعفة والورع والتقوى . . . مما سنفصل القول فيه بعد .

ولا بأس أن نورد لك أيضاً كلمة يسيرة عن جدته لأمه تبيين
منها كرم عنصره وشرف محتده. ذكروا أن عمر بن الخطاب خرج
ذات ليلة يعس بالمدينة حتى أعيأ فاتكأ على جانب جدار ،
فإذا امرأة تقول لابنتها : يا بنتاه ، قومي إلى ذلك اللبن فامدقيه
بالماء ، فقالت لها : يا أماه ، أو ما علمت بما كان من عزمة
أمير المؤمنين اليوم ؟ فقالت : وما كان من عزمته يا بنية ؟ قالت :
إنه أمر منادياً فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء ، فقالت لها :
يا بنتاه ، قدملق الناس فامدقى ، وإنك بموضع لا يراك عمر ،
ولا منادى عمر ، وما يدريه ؟ فقالت الصبية : إن كان عمر

لا يعلم فإنه عمر يعلم ، والله ما كنت لأطيعه في الملا ، وأعصيه في الخلا ! وعمر يسمع كل ذلك ، وكان معه رجل يسمى أسلم ، فقال : يا أسلم ، عسى الباب واعرف الموضع ، ومضى في عسسه ، فلما أصبح قال : يا أسلم ، امض إلى ذلك الموضع فانظر أمرهما ، فنظر فإذا الجارية أيّم ، وإذا تلك أمها ، وليس لهما رجل ، وهما من بني هلال ، فأخبر عمر بنخبرهما ، فدعا ابنه عاصما فزوجه من الجارية ، فولدت له أم عاصم ، فتزوجها عبد العزيز بن مروان فأتت بعمر بن عبد العزيز .

وكان يلقب بالأشج ، لأنه ركب وهو صغير دابة من دواب أبيه فسقط عنها فشج فلقب بذلك .

مولده

ولد عمر بن عبد العزيز سنة ٦١ هـ وقيل سنة ٦٣ هـ وكانت ولادته بالمدينة ، فلما شب وعقل - وهو بعد غلام صغير - كان يأتي عبدالله بن عمر بن الخطاب لمكان أمه منه ، ثم يرجع إلى أمه فيقول : يا أمه ، أنا أحب أن أكون مثل خالي - يريد عبدالله بن عمر - فتؤفف به وتقول له : اعزب ، أنت تكون مثل خالك ؟ ! فلما كبر سار أبوه عبد العزيز بن مروان إلى مصر أميراً عليها ، ثم كتب إلى زوجته أم عاصم أن تقدم عليه بولدها ، فأنت عمها عبدالله بن عمر فأعلمته بكتاب زوجها إليها ، فقال لها : يا بنة أخى هوزوجك فالحق به ، فلما أرادت الخروج قال لها : خلّنى هذا الغلام عندنا - يريد عمر - فإنه أشبهكم بنا أهل البيت ، فخلفته عنده ولم تخالفه ، فلما قدمت على عبد العزيز أخبرته بنجر عمر ، فسر بذلك وكتب إلى أخيه عبد الملك بن مروان يخبره بأمره ، فكتب عبد الملك أن يجري عليه ألف دينار في كل شهر ، ثم قدم عمر على أبيه بعد ذلك مسلماً عليه فأقام عنده ما شاء الله .

هذه إحدى روايتين في مولد عمر ، والثانية أنه ولد بـحـلوان
 - قرية في مصر - وأبوه أمير عليها ، ثم بعث به إلى المدينة
 ليتأدب بها .

ونحن إلى ترجيح الرواية الأولى أميل ، لأن عبد العزيز
 ابن مروان سنة مولد ابنه عمر على كلا القولين لم يكن والياً على
 مصر ، وإنما كان والياً على مصر سنة ٦١ هـ هو مسلمة بن
 مخلد ، والوالى عليها سنة ٦٣ هـ هو سعيد بن يزيد ، أما عبد العزيز
 ابن مروان فقد ولي إمرة مصر لأبيه مروان بن الحكم في غرة رجب
 سنة ٦٥ هـ ، وأقام بها منذئذ حتى وقع بها الطاعون سنة ٧٠ هـ
 فخرج منها ونزل بـحـلوان ، فأعجبته فاشتراها من القبط بعشرة آلاف
 دينار ، واتخذها سكناً وبني بها الدور والمساجد ، وعمرها أحسن
 عمارة وغرس نخلها وكرمها ، وظل على ولاية مصر عشرين سنة
 حتى مات سنة ٨٥ هـ .

وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية ، فإنهما تتلاقيان في
 نتيجهما وهي أن عمر شب وترعرع بالمدينة .

نشأته وثقافته

وقد عني أبوه بتربيته واستصلاحه منذ نشأته ، فكتب إلى صالح بن كيسان بالمدينة أن يتعاهده ويرعاه ، وكان صالح يلزمه الصلاة ، فأبطأ يوماً عنها ، فقال : ما حبسك ؟ قال : كانت مرجلتى تسكن شعري ، فقال : بلغ بك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة ! وكتب إلى أبيه بذلك ، فبعث إليه عبد العزيز رسولا فلم يبارحه حتى حلق شعره .

ولا يغيب عن بالك أن المدينة في ذلك العهد كانت أهم مراكز الثقافة الإسلامية ، فقد شرفت زمن النبوة بأن كانت مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وبها حدثت أكثر حديثه ، وشرّع جل شريعته ، وظلت من بعده مقر الخلافة الإسلامية أيام أبي بكر وعمر وعثمان ، وموطننا لكبار الصحابة وأئمتهم الأعلام ، واشتهر بها كثير من علمائها الأجلاء منهم زيد بن ثابت وكان لا يقدم عليه أحد في القضاء والفتوى والفرائض (المواريث) والقراءة ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وكان إماماً في علم الحديث ، وتلقى العلم على هؤلاء العلماء من

الصحابة في المدينة كثير من علماء التابعين ، من أشهرهم سعيد ابن المسيب وعروة بن الزبير بن العوام ، من أجل ذلك كان طلبة العلم يقصدون إلى المدينة من شتى البلاد لينهلوا من موارد علومها ، فلا غرو أن يبعث عبد العزيز بابنه عمر إليها ليتأدب بها .

في هذه البيئة العلمية الزاكية نشأ عمر ، وعلى أساتذتها تثقف ، وقد روى الحديث وتلقى الفقه عن جماعة من الصحابة ، منهم أنس بن مالك المتوفى سنة ٩٠ هـ وقد جاوز المائة ، رآه عمر وروى عنه وصلى أنس خلفه ، ومنهم عبدالله بن عمر بن الخطاب المتوفى سنة ٧٤ هـ وهو عم أمه كما قدمنا ، وعبدالله بن جعفر بن أبي طالب المتوفى سنة ٨٠ هـ ، وعن جماعة من كبار التابعين منهم سعيد بن المسيب المتوفى سنة ٩٤ هـ هو رأس علماء التابعين وفردهم وفقههم ، وعروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هـ ، وسالم ابن عبدالله بن عمر المتوفى سنة ١٠٦ هـ وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود المتوفى سنة ٩٩ هـ وكان عمر بن عبد العزيز يقول : « ما رويت عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة أكثر مما رويت عن جميع الناس » ويقول أيضاً : « لأن يكون لي مجلس من عبيدالله أحب إلى من الدنيا وما فيها » ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٥ هـ ، وقد كتب عمر بعد إلى

الآفاق : « عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم
بالسنة الماضية منه » .

على هؤلاء العلماء الجهابذة وعلى غيرهم من علماء المدينة
تخرج عمر في علوم الدين حتى حذقها وصار فيها إماماً ضليعاً
مبرزاً ، وحتى يقول فيه ميمون بن مهران المتوفى سنة ١١٧ هـ :
« ما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلاميذ » ويقول ؛
« عمر بن عبد العزيز معلم العلماء » وستلمس أثر تلك الثقافة
الفياضة جلياً فيما نورده لك بعد في مناظرته للخوارج والقدرية .

وكذلك كانت المدينة في تلك الحقبة تزخر بالحياة الأدبية
من قرض الشعر ورواية أشعار العرب وأخبارهم وأيامهم ، فأخذ
عمر بحظه من الثقافة الأدبية وملأ منها سجله ، وقد حدث عن
نفسه فقال : « لقد ربيتني وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان ثم تآقت
نفسى إلى العلم بالعربية والشعر فأصبت منه حاجتى » وسترى
أثر تلك الثقافة أيضاً فيما نورده لك بعد من حديثنا عنه مع
الشعراء ، وأنت عليم أنه ابن الخلائف من قریش أفصح العرب
وأرقها لهجة ، وأن اللسان العربى كان لا يزال إلى عصره قوياً
سليماً لم تشبه عجمة ، ولم تشنه هجنة ، اللهم إلا قليلاً جداً من
اللحن لم يعد دائرة ضيقة محدودة ، ولئن أخذ على بعض الأمويين
وقوع اللحن في قولهم ، كالوليد ومحمد ابني عبد الملك ، وبشر

وعبد العزيز ابني مروان ، وعبد الله بن يزيد بن معاوية ، إن
 عمر بن عبد العزيز لم يتعلق عليه أحد بلحن في قول ، ومن فكه
 ما يروى في هذا الصدد أن بشر بن مروان قال يوماً لغلام له
 وكان عنده عمر بن عبد العزيز: ادع لي صالحاً ، فقال الغلام :
 يا صالحاً ، فقال له بشر ، ألق منها ألف ، فقال له عمر :
 وأنت فزد في ألفك ألفاً .

ترفه قبل استخلافه

ولئن كان عمر قد استوفى حظه من الحياة الثقافية ، العلمية والأدبية ، في المدينة ، إنه لم ينس نصيبه في عنفوان شبابه من حياة الترف وترف الحياة ، في حدود الاستمتاع الحلال المشروع ، حتى إذا ما حمل أعباء الخلافة نفص يده من الدنيا جملة ، وطلقها بائنة لا رجعة فيها .

وليس بغريب على مثل عمر أن يعيش عيش المترفين المرفهين ، فقد درج من بيت الخلافة ، ورتع في مجبوحة الملك ، وتفتأ ظلال الإمارة ، وربى في حجر النعيم ، كان جده مروان بن الحكم خليفة ، وكان عمه عبد الملك بن مروان خليفة ، وكان أبوه عبد العزيز بن مروان على مصر أميراً ، وقد أسلفنا لك أن عمه عبد الملك أجرى عليه وهو صغير بالمدينة ألف دينار كل شهر .

وهاك طرفاً مما سطرته كتب التاريخ في هذا الصدد :

ذكروا أن عمر كان أعظم أموى ترفها ، غذى بالملك ونشأ فيه ، لا يعرف إلا وهو تعصف ريحه ، فتوجد رائحته في المكان الذي يمر فيه ، ويمشى مشية تسمى العمرية ، فكان الجوارى

يتعلمها من حسنها وتبخره فيها ، وأنه ترك كل شيء كان فيه لما استخلف غير مشيته ، فإنه لم يستطع تركها ، فربما قال لمزاحم : ذكرني إذا رأيتني أمشي فيذكره ، فيخلطها ، ثم لا يستطيع إلا إياها فيرجع إليها ، وكان يطبع بخاتمه فيعلق العنبر بالطينة ، فلم يزل على ذلك حتى ولى الخلافة فزهد في الدنيا ورفضها وحدث رجل قال : رأيته في المدينة وهو أحسن الناس لباساً ، ومن أطيب الناس ريحاً ، ومن أخيل الناس في مشيته ، ثم رأيته بعد ذلك يمشي مشية الرهبان .

وأناه رجل أيام خلافته فأمره أن يشتري له كساء بثمانية دراهم ! فاشتراه له وأناه به فأعجبه ووضع يده عليه وقال : ما ألينه ، فضحك الرجل ، فقال له عمر : إني لأحسبك أحق ، أتضحك من غير شيء ! قال : ما ذاك بي ، ولكنك أمرتني قبل ولايتك أن أشتري لك مطرف خز ، فاشتريت لك مطرفاً بثمانمائة درهم ، فوضعت يدك عليه فقلت : ما أحسنه ، وأنت اليوم تستلين كساء بثمانية دراهم ، فعجبت من ذلك وأضحكني .

وحدث شيخ من قریش قال : كان عمر بن عبد العزيز يقول قبل الخلافة : لقد خفت أن يعجز ما قسم الله لي عن كسوتي ، وما لبست ثوباً قط فرآه الناس على إلا خيل لي أنه قد بلى ، فلما ولى خرج من ذلك كله .

وقال آخر: كان عمر يذيل ثيابه ويسرف في عطره ، فلقد كان يدخل في طيبه حمل القرنفل ، ولقد رأيت العنبر على لحيته كالملح ، فلما أفضت إليه الخلافة ترك ذلك وتبذل .

وحدث شيخ كان في حرس عمر قال : رأيت حين ولى فإذا به من حسن اللون وجودة الثياب والبزة ، ثم دخلت عليه بعد وقد ولى فإذا هو قد احترق واسود ولصق جلده بعظمه حتى ليس بين الجلد والعظم لحم .

وذكروا أنه ولى المدينة ، فسار أحسن سيرة ، وكان مع ذلك يعصف ريحه ، ويرخي شعره ، ويسبل إزاره ، ويتبختر في مشيته ، وهو مع ذلك لا يغمص عليه في بطن ولا فرج ولا حكم .

وروا أنه لما ولى الخلافة زهد في الدنيا ، ورفض ما كان فيه ، وترك أن يخدم ، وترك ألوان الطعام ، فكان إذا صنع له طعامه هتئ على شيء وغطى حتى إذا دخل اجتنبه فأكل . كل هذا يصور لك بجلاء أنه لم ينس نصيبه من الدنيا في شرخ صباه ، فلما أن ولى الخلافة خرج من جميع ما كان فيه من النعيم في الملبس والمأكل والمتاع .

عمر والغناء

قال أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني :

« أول من دونت له صنعة من الخلفاء عمر بن عبد العزيز ، فإنه ذكر عنه أنه صنع في أيام إمارته على الحجاز سبعة ألحان يذكر سعاد فيها كلها ، فبعضها عرفت الشاعر القائل له فذكرت خبره ، وبعضها لم أعرف قائله فأتيت به كما وقع إلى ... »

ومن الناس من ينكر أن تكون لعمر بن عبد العزيز هذه الصنعة ، ويقول إنها أصوات محكمة العمل ، لا يقدر على مثلها إلا من طالت دربته بالصنعة ، وحذق الغناء ، ومهر فيه ، وتمكن منه ، ولم يوجد عمر بن عبد العزيز في وقت من الأوقات ، ولا حال من الحالات ، اشتهر بالغناء ، ولا عرف به ، ولا بمعاشرة أهله ، ولا جالس من ينقل ذلك عنه ويؤديه ، وإنما هوشىء يحسن المغنون نسبته إليه .

وروى من غير وجه خلاف لذلك ، وإثبات لصنعته إياها ، وهو أصح القولين ، لأن الذين أنكروا ذلك لم يأتوا على إنكارهم بحجة أكثر من هذا الظن والدعوى ، ومخالفتهم أخبار رويت .

وقال :

عن كردم بن معبد قال : طرح على عمر بن عبد العزيز لحنه :

علق القلب سعادا عادت القلب فعادا

كلما عوتب فيها أو نهى عنها تمادى

وهو مشغوف بسعدى قد عصى فيها وزادا

قال كردم : وكان عمر أحسن خلق الله صوتاً ، وكان حسن

القراءة للقرآن .

وعن محمد بن الحسين قال : قلت لعمر بن عبد العزيز :

يا أمير المؤمنين ، صوت يزعم الناس أنك صنعته في شعر جرير :

ألمأ صاحبي نزر سعادا لو شك فراقها وذرا البعادا

لعمرك إن نفع سعاد عني لمصروف ، ونفعي عن سعادا

إلى الفاروق ينتسب ابن ليلى ومروان الذى رفع العمادا

فتبسم عمر ولم يرد على شيئاً .

قال أبو الفرج : والشعر لجرير يمدح عمر بن عبد العزيز بن

مروان ، والغناء لعمر بن عبد العزيز .

وقال :

ومن أصوات عمر فى سعاد .

ألا يا دين قلبك من سليمى كما قد دين قلبك من سعادا
 هما سبتا الفؤاد وأصبتاه ولم يدرك بذلك ما أرادا
 قفا نعرف منازل من سليمى دوارس بين حومل أو عرادا
 ذكرت بها الشباب وآل ليلي فلم يرد الشباب بها مرادا
 فإن تشب النؤابة أم زيد فقد لاقيت أياما شدادا
 وقال :

لعمر بن عبد العزيز في سعاد سبعة ألحان :
 منها :

يا سعاد التى سبتنى فؤادى ورقادى ، هبى لعينى رقادى
 ومنها :

حظ عيني من سعاد أبداً طول السهاد
 ومنها :

سبحان ربى برا سعادا لا تعرف الوصل والودادا
 ومنها :

لعمري لئن كانت سعاد هى المنى
 وحنة خلد لا يمل خلودها
 ومنها :

أسعاد جودى (لا شقيت) سعادا
 واجزى محبك رافة وودادا

ومنها :

ألمأ صاحبي نزر سعادا لو شك فراقها وذرا البعادا
ومنها :

ألا يا دين قلبك من سليمي كما قد دين قلبك من سعادا
هذا ما أورده صاحب الأغاني في ذلك الصدد، ونحن نذهب
فيه مذهبه ، ونوافقه فيما رجحه ، ولسنا ممن ينكر أنه كان لعمر
ابن عبد العزيز - في ميلة شبابه ، وقبل أن يتقلد الخلافة -
هوى في الغناء ، وصبوة إليه ، فإن أحداً لا يمارى في أن الغناء
فن جميل ، يتعشقه كل إنسان بفطرته ، وتهيم به كل نفس
بطبيعتها ، يتوق إليه الملك في قصره ، ويشتاقه الصعلوك في
كوخه ، وهو غذاء الأرواح ، وسلسيل القلوب ، وصقال
النفوس ، وروضة الأذهان ، وهو بعد متعة مشروعة ، لا ياباها
الدين ، ولا تنكرها الشريعة ، ما دام لا يكتنفه رقت ولا فسوق
ولا شراب ، دع عنك ما يتشدد به المزمعون من أن الدين
يحظره ، وأن الشرع لا يبيحه ، وحسبنا في تفنيد زعمهم ما ورد
في الحديث الشريف : « عن عائشة رضي الله عنها أنها زفت
امراً إلى رجل من الأنصار ، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم :
« يا عائشة ، ما كان معكم لهُو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو »
وفي رواية : « فهلا بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغني »

وقال صاحب العقد الفريد: « واحتجوا في إباحة الغناء واستحسانه بقول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة : أهديتم الفتاة إلى بعليها ؟ قالت : نعم ، قال : فبعثتم معها من يغني ؟ قالت : لا ، قال : أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل ؟ ألا بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمرا ء لم نحلل بواديكم

واحتجوا بحديث عبد الله بن أويس ابن عم مالك ، وكان من أفضل رجال الزهري ، قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم بجارية في ظل فارع وهي تغني :

هل على ويحكم إن لهوت من حرج ؟
فقال النبي : لا حرج إن شاء الله »

فلا حرج إذن على عمر أن يهوى الغناء ويصبو إليه ، ولا يغتمز ذلك فيه ، ولا ينقص من دينه وفضله .

وليس يبدع أن يهفو عمر إلى الغناء ، ويشرب فؤاده حبه ، وهو قد نشأ في بيئة غنائية ، فيأضه بالألحان والإيقاع ، مفعمة بحذاق المغنين والمغنيات ، وهذا قول مجمل تفصله لك بعض التفصيل .

خلصت الخلافة لمعاوية بعد ما شجر بينه وبين علي من

خصام ، وما نشب من قتال ، فلم ينم عن توطيد عرشه ، وكان ذا حنكة سياسية فائقة ، وبصر بأعقاب الأمور ثاقب ، وكان بالمدينة على عهده طائفة من الشباب المترف من أبناء المهاجرين والأنصار يخشى أن تشرتب أعناقهم إلى الخلافة ، ويسول لهم حب الملك أن يكيدوا له ، فقصرهم على سكنى الحجاز ، وحظر عليهم أن يغادروه إلا بإذنه ، ورأى من الحزم أن يقيدهم بالإحسان ، ويفيض عليهم جزيل العطاء ، ففرض لهم رواتب ضخمة في بيت المال كانت تتدفق عليهم من خزائن الشام ، هذا إلى ما ورثوه من آباءهم الفاتحين من ثراء وافر ، ثم هم بعد فارغون من العمل متعطلون ، فصدق فيهم قول أبي العتاهية :

إن الشباب والفراغ والجلده مفسدة للمرء أى مفسده
نشأ هؤلاء الشباب يتقلبون في أعطاف النعمة والبطالة ،
فجنحوا إلى الاستمتاع بلذائذ الحياة ومتعها ، وطفقوا ينفقون
الأموال في الترف واللهو والقصف والغناء ، ولها بذلك عن طلب
الملك والإمارة ، وكانت مواد النعيم لديهم موفورة ، فقد كان
من نصيبهم — وهم العنصر الفاتح — خير الجوارى من السبايا
وأرفعهن نسباً ، ومنهن من تربى في بيوت الملوك والأمراء ،
فكثرت التسرى بالحميلات من الروميات والفارسيات ، وكان

كثرة الموالى فى الحجاز رجالا ونساء من أهم العوامل فى نمو فن الغناء وتقدمه .

وقد سبقت المدينة سائر المدائن الإسلامية إلى الغناء ، وشاع اللهو والقصف بين أهلها ، فإن سائب خاثر - وهو مولى بنى ليث ، وأصله من قىء كسرى ، واشتراه عبدالله بن جعفر الهاشمى - هو أول من عمل العود بالمدينة وغنى به ، واشترى عبدالله بن عامر إماء وأتى بهن المدينة ، فكان لهن يوم فى الجمعة يغنين فيه ، وسمع الناس منهن فأخذوا عنهن ، ثم قدم رجل فارسى يسمى نشيطاً فغنى فأعجب عبدالله بن جعفر به ، فقال له سائب خاثر : أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسى بالعربية ، ثم غدا على عبدالله بن جعفر وقد صنع :

لمن الديار رسومها قفر لعبت بها الأرواح والقطر
وهو أول صوت غنى به فى الإسلام من الغناء العربى المتقن
الصنعة ، ثم اشترى عبدالله بن جعفر نشيطاً بعد ذلك ، فأخذ
عن سائب خاثر الغناء العربى ، وأخذ عنه ابن سريج وجميلة
ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم .

ثم شاع الغناء وذاع ، ونبغ فيه كثير من المغنين والمغنيات ،
وغصت بهم المدينة ومكة ، روى صاحب الأغانى قال : « حجت
جميلة فخرج معها من المغنين مشيعين ، حتى وافوا مكة ورجعوا

معها ، من الرجال المشهورين الخذاق بالغناء : هيت وطويس والدلال وبرد الفؤاد ونومة الضحى وقد ورحمة وهبة الله ومعبد ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبورة وبديح الملبح ونافع الخير ، ومن النساء المغنيات الفارهة : عزة الميلاء وحباة وسلامة وخليدة وعتيلة والشماسية وفرعة وبلبله ولذة العيش وسعيدة والزرقاء . . . ولما قاربوا مكة تلقاهم سعيد بن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز وجماعة من المغنين من أهل مكة وقيان كثيرة . . . وخرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتهم ، فلما قضت حجها وقدمت المدينة تلقاها أهلها فدخلت أحسن مما خرجت به منها . . . » .

وكانت جمهرة المغنين في الحجاز أكثر منها في العراق ، جاء في ترجمة حنين الحيرى في الأغاني : « كان فحلا من فحول المغنين ، وله صنعة فاضلة متقدمة ، وكان يسكن الحيرة ، ثم قال : ولم يكن بالحيرة مذكور في الغناء سوى حنين إلا نفر من السديريين يقال لهم عباديس وزيد بن الطيس وزيد بن كعب ومالك بن حمدة . . . »

وروى أيضاً صاحب الأغاني قال : « كان المغنون في عصر حنين الحيرى أربعة نفر : ثلاثة بالحجاز وهم ابن سريج والغريض ومعبد ، وهو وحده بالعراق ، فكان يبلغهم أن حنيناً قد غنى

فى هذا الشعر : « هلا بكيت على الشباب الذاهب » فاجتمعوا فتذاكروا أمره وقالوا : ما فى الدنيا أهل صناعة شرمنا ، لنا أخ بالعراق ونحن بالحجاز لا نزوره ولا نستريه ! فكتبوا إليه ووجهوا له نفقة ، وكتبوا يقولون : نحن ثلاثة وأنت وحدك ، فأنت أولى بزيارتنا ، فشخص إليهم ، فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبره فخرجوا يتلقونه ، فلم يريوم كان أكثر حشداً ولا جمعاً من يومئذ ، ودخلوا فلما صاروا فى بعض الطريق ، قال لهم معبد : صيروا إلى ، فقال له ابن سريج : إن كان لك من الشرف والمروءة مثل ما لمولائى سكىنة بنت الحسين عطفنا إليك ، فقال : مالى من ذلك شىء ، وعدلوا إلى منزل سكىنة ، وأذنت للناس إذنا عاماً ، فغصت الدار بهم ، وصعدوا فوق السطح ، وأمرت لهم بالأطعمة ، فأكلوا منها ، ثم سألوا حنيناً أن يغنيهم صوته الذى أوله : « هلا بكيت على الشباب الذاهب » فغناهم إياه بعد أن قال لهم : ابدعوا أنتم ، فقالوا : ما كنا لتتقدمك ولا نغنى قبلك حتى نسمع هذا الصوت ، فغناهم إياه وكان من أحسن الناس صوتاً ، فازدحم الناس على السطح ، وكثروا ليسمعوه ، فسقط الرواق على من تحته ، فسلموا جميعاً وأخرجوا أعرجاء ، ومات حنين تحت الهدم ، فقالت سكىنة عليها السلام : لقد كدر علينا حنين سرورنا ، انتظرناه مدة طويلة

كأننا والله كنا نسوقه إلى منيته » .

هذه شذرة تصورك الحياة الغنائية بالمدينة في ذلك العهد ،
وتريك أن حياة المرح واللهو والطرب كانت تسير فيها حياة الفقه
والحديث والورع والتقوى جنباً لجنب ، وأن أشرافها ما كانوا
ليتخرجوا من سماع الأغاني أو يعيبوه ، وكيف وهذه السيدة سكيته
بنت الحسين رضى الله عنه — وهى من تعلم ، فى شريف
نسبها ، وسامى شرفها — يقام فى دارها هذا الحفل الغنائى ،
وتأذن للناس فى حضوره إذنا عاماً ، وتقدم لهم فيه الأطعمة ،
ويتزاحمون ويتدافعون حتى يسقط بهم الرواق على من تحته !
وأكثر من ذلك أن بعض كبار الأئمة فى المدينة كان له مشاركة
حسنة فى هذا الفن الجميل ، وهاك استمع لصاحب الأغاني
يحدثك عن الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي
— وقد أدرك أواخر حياة عمر ، ولد سنة ٩٥ هـ وتوفى سنة
سنة ١٧٩ هـ — قال حسين بن دحمان الأشقر : كنت بالمدينة
فخلالى الطريق وسط النهار فجعلت أتغنى بصوت ، فإذا خوخة
قد فتحت وإذا وجه قد بدا تتبعه لحية حمراء ، فقال : أسأت
التأدية ، ومنعت القائلة ، ثم اندفع يغنيه فظننت أن طويسا قد
نشر بعينه ، فقلت له : أصلحك الله ، من أين لك هذا الغناء ؟
قال : نشأت وأنا غلام حدث أتبع المغنين وأخذ عنهم ، فقالت

لى أُمى : يا بنى إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه ، فدع الغناء واطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه ، فتركت المغنين واتبعت الفقهاء ، فبلغ الله بى عز وجل ما ترى ، فقلت له : فأعد جعلت فداءك ، قال : لا ولاكرامة ، أتريد أن تقول : أخذته عن مالك بن أنس ؟ وإذا هو مالك بن أنس ولم أعلم !

وملاك القول أن عمر بن عبد العزيز نشأ فى ظلال هذه الأيكة الفينانة ، وسمع بلابلها المغردة ، وأطيارها المرنة ، ووهب الله له حنجرة موسيقية ، فشدوا ولحن ، وتغنى وترنم !

ولايته على المدينة

وفي ربيع الأول سنة ٨٧ هـ ولاه الوليد بن عبد الملك المدينة ،
فقدمها ونزل دار جده مروان بن الحكم ، ودخل عليه الناس
فسلموا ، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة : عروة
ابن الزبير وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبا بكر بن عبد الرحمن ،
وأبا بكر بن سليمان ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد ،
وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله
ابن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ، فدخلوا عليه فجلسوا ،
فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعواناً
على الحق ، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم ، أو برأى من
حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدى ، أو بلغكم عن عامل لي
لى ظلامة ، فأخرج بالله على من بلغه ذلك إلا بلغني »
فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا .

فأنت تقرأ في هذه الكلمة الوجيزة الدستور الذي سنه لحكمه ،
والنهج القويم الذي رام أن ينتهجه في ولايته ، وترى كيف اتخذ

من هؤلاء الأئمة الأعلام أعواناً له على الحق ، يجعل أمره شورى بينهم ، ولا ينفذ حكماً إلا باطلاعهم ، ثم ترى كيف ينشدهم الله أن لا يزووا عنه خبر شكاية أو ظلامة ، من أحد من عماله ، أو من عامة الناس ، فلا غرو أن يسطر المؤرخون في صحيفة تاريخه : « ولى عمر المدينة فسار أحسن سيرة » .

وولى عمر على قضاء المدينة أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم ، وعرف للعلماء حقهم وفضلهم ، فأولاهم ما هم أهل له من الإكبار والإجلال . ذكروا أنه أرسل إبان ولايته على المدينة رسولا إلى سعيد بن المسيب — وهو من قدمنا لك فضله — يسأله عن مسألة ، وكان سعيد لا يأتى أميراً ولا خليفة ، فأخطأ الرسول فقال له : الأمير يدعوك ، فقصد إليه ، فلما رآه عمر قال له : عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا ، فلما لم نرسله ليدعوك ، وإنما أرسلناه ليسألك ، ولكنه أخطأ » .

وبإزاء ما تراه فى هذا الخبر من عظيم احترامه وتقديره للعلماء ، تلمح من خلال ما ورد فيه من « أن سعيداً كان لا يأتى أميراً ولا خليفة » كيف كان ذلك العالم العليم يحرص على الاحتفاظ بكرامته ، والاعتزاز بمقامه الجليل .

ومن أخباره أيام ولايته على المدينة أن الوليد بعث إليه سنة ٨٨ هـ

بكتاب يأمره بإدخال حجر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد رسول الله ، وأن يشتري ما في مؤخره ونواحيه حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع ، ويقول له : قدّم القبلة إن قدرت — وأنت تقدر — لمكان أخوالك ، فإنهم لا يخالفونك ، فمن أبي منهم فمر أهل المصر فليقوموا له قيمة عدل ، ثم اهدم عليهم وادفع إليهم الأثمان ، فإن لك في ذلك سلف صدق ، عمر وعثمان ، فأقرأهم كتاب الوليد ، فأجاب القوم إلى الثمن فأعطاهم إياه ، وأخذ في هدم بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وبناء المسجد ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى قدم الفعلة ، بعث بهم الوليد .

وفي هذه السنة أيضاً كتب الوليد إلى عمر في تسهيل الثنايا وحفر الآبار بالمدينة ، وكتب إلى خالد بن عبد الله القسري بذلك — وكان على مكة —

وفيها كتب إلى عمر أن يعمل الفؤارة التي عند دار يزيد بن عبد الملك ، فعملها عمر وأجرى ماءها ، فلما حج الوليد وقف عليها فنظر إلى بيت الماء والفؤارة فأعجبه وأمر لها بقوام يقومون عليها ، وأن يستق أهل المسجد منها ، ففعل ذلك .

وفي هذه السنة حج عمر بن عبد العزيز بالناس ، قال صالح ابن كيسان : خرج عمر بعدة من قریش أرسل إليهم بصلات

ودواب للحمولة ، وأحرموا معه من ذى الحليفة وساق معه
 بدنا ، فلما كان بالتنعيم لقيهم نفر من قريش فأخبروه أن
 مكة قليلة الماء ، وأنهم يخافون على الحاج العطش ، وذلك أن
 المطر قل ، فقال عمر : فالمطلب ها هنا بين ، تعالوا ندع الله ،
 فدعوا ودعا معهم فألحوا في الدعاء ، قال صالح : فلا والله ،
 ما وصلنا إلى البيت ذلك اليوم إلا مع المطر حتى كان مع
 الليل ، وسكبت السماء وجاء سيل الوادي ، فجاء أمر خافه أهل
 مكة ، ومطرت عرفة ومنى وجمع ، قال : ونبتت مكة تلك
 السنة للخصب .

وظل عمر على ولاية المدينة حتى كانت سنة ٩١ هـ فضمت
 إليه ولاية مكة ، ثم عزله الوليد سنة ٩٣ هـ ، وكان سبب ذلك
 أن عمر كتب إلى الوليد يخبره بعسف الحجاج أهل عمله بالعراق ،
 واعتدائه عليهم ، وظلمه لهم بغير حق ولا جناية ، وبلغ ذلك
 الحجاج فاضطغته على عمر وكتب إلى الوليد :

« إن من قبلى من مراق أهل العراق ، أهل الشقاق ، قد
 جلوا عن العراق ، ولجئوا إلى المدينة ومكة ، وإن ذلك وهن .
 فكتب الوليد إلى الحجاج أن أشر على برجلين ، فكتب
 إليه يشير عليه بعمان بن حيان وخالد بن عبدالله ، فولى خالدا

مكة ، وعثمان المدينة ، وعزل عمر بن عبد العزيز ، فخرج من المدينة فأقام بالسويداء .

يصور لك هذا الخمر بجلاء كيف كان الوليد يصانع الحجاج ، وإلى أى حد كان يتزل على إرادته ، ويخضع لأمره ، فلا عجب أن يقول : « إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول : إن الحجاج جلدة ما بين عيني ، وأنا أقول : إنه جلدة وجهي كله » ولقد حفظ وصية أبيه فيه ، إذ قال له ولإخوته فيما قال عند وفاته : « وأكرموا الحجاج ، فإنه الذى وطأ لكم هذا الأمر » .

وقبل أن يغادر ركب عمر المدينة نرى أن نقف بالقارئ هنية نحدثه فيها عن حال الشعراء معه إبان إمارته فنقول :

عمر والشعراء أيام إمارته

كان المدح والهجاء أبرز الفنون الشعرية في العصر الأموي ، وأكثرها تناولا وذيو عاً ، فكان الشعراء يؤمون بمدحهم البليغة ساحة الخلفاء والأمراء والكبراء ، فيجزل هؤلاء لهم العطاء ، ويفيضون عليهم المنح ، كما ذكت بينهم نار الهجاء ، واستطار شره ، وجروا في مضماره أشواطاً بعيدة المدى ، وكان الفرسان المبرزون في هذين الميدانين جريراً والفرزدق والأخطل ، ونجترئ في هذا الباب بما يتصل بموضوعنا منه .

* * *

ذكروا أن الفرزدق قدم المدينة في سنة مجدبة ، فشى أهلها إلى عمر بن عبد العزيز فقالوا له : أيها الأمير ، إن الفرزدق قدم مدينتنا في هذه السنة الجدبة التي قد أهلكت عامة أموالنا ، وليس عند أحد منا ما يعطيه شاعراً ، فلو أن الأمير بعث إليه فأرضاه ، وتقدم إليه ألا يعرض لأحد بمدح ولا هجاء ، فبعث إليه عمر : إنك يا فرزدق قدمت مدينتنا في هذه السنة الجدبة ، وليس عند أحد ما يعطيه شاعراً ، وقد أمرت لك

بأربعة آلاف درهم ، فخذها ولا تعرض لأحد بمدح ولا هجاء ، فأخذها الفرزدق ، ومربع الله بن عمرو بن عثمان ، وهو جالس في سقيفة داره ، عليه مطرف خزأحمر ، وجبة خز أحمر ، فوقف عليه ، ومدحه بأبيات من شعره ، فخلع عليه الجبة والعمامة والمطرف ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فخرج رجل - كان حضر عبدالله ، والفرزدق عنده ، ورأى ما أعطاه إياه ، وسمع ما أمره عمر به من ألا يعرض لأحد - فدخل إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره ، فبعث إليه عمر : ألم أتقدم إليك يا فرزدق ألا تعرض لأحد بمدح ولا هجاء ؟ اخرج فقد أجلتكَ ثلاثاً ، فإن وجدتكَ بعد ثلاث نكلت بك ، فخرج وهو يقول :

فأجلني وواعدني ثلاثاً كما وعدت لمهلكها ثمود
فقال جرير فيه :

نفاك الأغر ابن عبد العزيز ومثلك ينني من المسجد
وشبهت نفسك أشقى ثمود فقالوا ضللت ولم تهتد
وقدم المدينة جرير أيضاً ومدح عمر بن عبد العزيز بقصيدة
بليغة منها :

ألمأ صاحبي نزر سعاداً لوشك فراقها وذرا البعادا
لعمرك إن نفع سعاد غنى لمصروف ونفعي غن سعادا

إليك رحلت يا عمر بن ليلي على ثقة أزورك واعتمادا
تعود صالح الأعمال إني رأيت المرء يلزم ما استعدا
إلى الفاروق ينتسب ابن ليلي ومروان الذي رفع العمادا
تزود مثل زاد أبيك فينا فنعم الزاد زاد أبيك زادا
فأكعب بن مامة وابن سعدى بأجود منك يا عمر الجوادا
هنيئاً للمدينة إذ أهلت بأهل الملك أبدأ ثم عادا
يعود الحلم منك على قریش وتفرج عنهم الكرب الشدادا
وقد لينت وحشهم برفق ويعي الناس وحشك أن يصادا
وتبنى المجد يا عمر بن ليلي وتكفي الممحل السنة الجمادا
وأنت ابن الحضارم من قریش هم نصرُوا النبوة والجهادا
وقادوا المؤمنين ولم تعود غداة الروع خيلهم القيادا
واستعرت نار الهجاء بين جرير وبين كثير من شعراء عصره ،
ورشقهم بسهام القدح ورشقوه ، وكان ممن هاجاهم عمر بن
لجأ التيمي ، والحديث في ذلك طويل ، ولا يهمننا هنا إلا أن
نقول : إن عمر بن عبد العزيز لم يمنعه مدح جرير إياه من أن
ينزل به العقاب هو وابن لجأ لما تبادلا قصائد الهجو والسباب .
روى صاحب الأغاني قال :

حدث إبراهيم بن عبد الله قال : حضرت عمر بن لجأ التيمي
وجريرا موقوفين للناس بسوق المدينة ، لما تهاجيا وتقاذفا ، وقد

أمر بهما عمر بن عبد العزيز ، فقرنا وأقيا ، وعمر بن لجأ شاب
 كأنه حصان ، وجرير شيخ قد أسن وضعف ، فيقول ابن لجأ :
 رأوا قمرا بساحتهم منيراً وكيف يقارن القمر الحمارا
 ثم يتزو به وهما مقرونان في حبل فيسقطان إلى الأرض ،
 فأما ابن لجأ فيقع قائماً ، وأما جرير فيخرلركبتيه ووجهه ، فإذا
 قام نفص الغبار عنه ، فقال رجل من جلساء عمر له حين حضر
 غداؤه : لو دعا الأمير بأسيريه فغداهما معه ، ففعل ذلك عمر .

وكان جرير قد قال في ابن لجأ قصيدته التي يقول فيها :

يا تيم تيم عدى لا أبا لكم لا يوقعنكم في سوءة عمر
 وحج أبو بكر بن عبد العزيز بن مروان ، فقدم المدينة ،
 فدخل عليه الأحوص - أحد شعراء المدينة - وسأله أن يستصحبه
 معه إلى الشام ، فوعده بذلك ، فلما خرج الأحوص قال له
 بعض من عنده : ما ذا تريد بنفسك ، تقدم بالأحوص الشام
 وبها من ينافسك من بني أبيك - وهو من الأفن والسفه على
 ما قد علمت - فيعيونك به ! ؟ فلما رجع أبو بكر من الحج
 دخل عليه الأحوص متنجزا لما وعده ، فقال له : كرهت أن
 أهجم بك على أمير المؤمنين (الوليد بن عبد الملك) من غير إذنه
 فيجبهك ، فيشمت بك عدوى من أهل بيتي ، ولكن خذ هذه
 الثياب والدنانير ، وأنا مستأذن لك أمير المؤمنين فإذا أذن لك

كتبت إليك فقدمت عليّ ، فقال له الأحوص : لا ، ولكن قد سبقت عندك ، ولا حاجة لي بعطيتك ، ثم خرج من عنده . فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز - وهو يومئذ أمير المدينة - فأرسل إلى الأحوص ، فلما دخل عليه أعطاه مائة دينار وكساه ثياباً فأخذ ذلك ، ثم قال له : يا أخى هب لي عرض أبى بكر ، قال : هولك ، وقد قال قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز ، وهى :
يا بيت عاتكة الذى أتعزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل
إنى لأمنحك الصدود وإننى قسما إليك مع الصدود لأميل
فصددت عنك وما صددت لبغضة

أخشى مقالة كاشح لا يعقل
هل عيشنا بك فى زمانك راجع
فلقد تفاحش بعدك المتعطل
إن الشباب وعيشنا اللذ الذى
كنا به زما نسر ونجذل
ولت بشاشته وأصبح ذكره
حزنا يعل به الفؤاد وينهل
إلا تذكر ما مضى وصباية
منيت لقلب متم لا يذهل
أودى الشباب وأخلقت لذاته
وأنا الحزين على الشباب المعول
خلقاً وليس على الزمان معول
بيكى لما قلب الزمان جديده
والرأس شامله البياض كأنه
بعد السواد به الثغام المحول
وسفينة هبت على بسحرة
جهلا تلوم على الثواء وتعذل
فأجبتها أن قلت لست مطاعة
فدرى تنصحك الذى لا يقبل

« عمر » ونبوة من يضمن ويبخل
 عصرّاً إذا نزل الزمان الممحل
 ذورونق غضب جللاه الصيقل
 حذر البغاث هوى بهن الأجدل
 وفضيلة سبقت له لا تجهل
 سبق المكارم سابق متمهل
 مجد الأرومة والفعال الأفضل
 إرث إذا عد القديم مؤئل
 أمراً أبان رشاده من يعقل
 لنداك ، إن الحازم المتحول
 وعدوا مواعد أخلفت إذ حصلوا
 ياساً ، وأخلفنى الذين أوئل
 عجلي ، وعندك عنهم متحول
 ووفيت إذ كذبوا الحديث وبدلوا
 غنى ، وأنت لثله متحمل
 شكراً تحل له المطى وترحل
 مبدولة ، ولغيركم لا تبذل
 لكم يكون خيار ما أتنخل
 تهوى بهم قلص المطى المرمّل

إنى كفانى أن أعالج رحلة
 بنوال ذى فجر تكون سجاله
 ماض على حدث الأمور كأنه
 تبدى الرجال (إذا بدا) إعظامه
 فيرون أن له عليهم سورة
 متحمل ثقل الأمور ، حوى له
 وله (إذا نسبت قريش) فيهمو
 وله بمكة إذ أمية أهلها
 أعتت قرابته ، وكان لزومه
 وسموت عن أخلاقهم. فتركهم
 ولقد بدأت أريد ود معاشر
 حتى إذا رجع اليقين مطامعى
 زابلت ما صنعوا إليك برحلة
 ووعدتنى فى حاجتى فصدقتنى
 وشكوت غرمّاً فادحاً فحملته
 فلاشكرن لك الذى أوليتنى
 مدحاً تكون لكم غرائب شعرها
 وإذا تنخلت القريض فإنه
 ولعمر من حنج الحجيح لبيته

إن امرأ قد نال منك وسيلة ينبغي منافع غيرها لمضلل
تغفوا إذا جهلوا بحلمك عنهمو وتنيل إن طلبوا النوال فتجزل
وتكون معقلهم إذا لم ينجهم من شر ما يخشون إلا المعقل
حتى كأنك يتقى بك دونهم من أسد ييشة خادر متبسل
وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مدق الحديث يقول ما لا يفعل
وأرى المدينة حين صرت أميرها أمن البريء بها ونام الأغزل
فقال عمر : ما أراك أعفيتني مما استعفيت منه — لأنه مدح
عمر وعرض بأخيه —

وأظهر ما يستنبط من هذه القصة أن العطاء والرؤساء في
ذلك العهد كانوا يتحامون جانب الشعراء ويتحاشون لسانهم ،
فقد رأيت عمر يمنح الأحوص منحته ، ويسأله أن يهب له عرض
أخيه ، ويمسك عن القدح فيه ، لما أخلف من وعده إياه ،
فيأبى الأحوص إلا أن يمزج مدحته لعمر بالتعريض بأبي بكر ،
فلا يسع عمر إلا أن يقول له : ما أراك أعفيتني مما استعفيت منه !
وسنذكر لك بعد بقية أخباره معه إبان خلافته

وكان بجانب ميداني المدح والهجاء في هذا العصر ميدان
ثالث فسيح ، وهو ميدان الغزل والتشبيب ، وفارس حلبته عمر
ابن أبي ربيعة ، وكان موطنه المدينة ، وقد وصفنا لك آنفاً حياة
المرح والغناء التي كانت تموج بها إذ ذاك ، ولقد كان لتلك

الحياة أثرها في ازدياد الغزل والتشبيب بالنساء ، فكثرت بالمدينة
وبمكة الشعراء الغزلون ، وصوروا في شعرهم عواطفهم وأهواءهم ،
وبثوا ما اختلج في نفوسهم من لواعج الصباة والهيام ، وقصوا
أبناء زياراتهم لحبيباتهم ، وما وقع لهم معهن من حادثات ،
وما دار بينهم وبينهن من أحاديث ، في شعر رقيق أنيق يشجى
الصب ، ويأخذ بلب الولهان ، وكان زعيمهم ومقدمهم في
ذلك عمر بن أبي ربيعة ، وقد أكثر في شعره من الرفث والفجور
حتى قيل فيه : « ما عصى الله بشيء كما عصى بشعر عمر بن أبي
ربيعة » وقيل فيه : « ما دخل على العواتق في حجالهن شيء أضر
عليهن من شعر عمر بن أبي ربيعة » وقيل فيه : « لا ترووا فتياتكم
شعر عمر بن أبي ربيعة لا يتورطن في الخنا تورطا » وقد أكثر عمر
من التعرض للمحصنات العفيفات من نساء قومه ومن غيرهن ،
وكان وفود النساء من الأقطار إلى مكة للحج مغرباً له بتبعهن
والتغزل بهن ، فكان إذا وافى موسم الحج خرج في زينة حسنة
وقد لبس الحلل المشاة ، وركب النجائب المخضوبة بالحناء
عليها القطوع والديباج ، ويرسل لفته ، ويلقى العراقيات والمدنيات
والشاميات من حيث يقدمن ، ويتعرض لنساء الأشراف وبناتهم
حتى يراهن ، ويرقب خروجهن للطواف والسعي ، ويصفهن
وهن محرمات ، واستطار شره وتمادى في غيه وشبب بينات السادات

والخلفاء ، حتى كانت عاقبة أمره أن غضب عايه عمر بن عبد العزيز ونفاه إلى دهلك

ويجدر بنا أن ننبه هنا إلى أن ما جاء في إحدى روايات الأغاني من أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة لم تكن له همة إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص ، فكتب إلى عامله بالمدينة : قد عرفت عمر والأحوص بالحبث والشر ، فإذا أتاك كتابي هذا فاشددهما واحملهما إلى فحملهما إليه . . . رواية غير صحيحة بالنسبة إلى ابن أبي ربيعة ، لأنه توفي قبل أن يلي عمر الخلافة ، إذ أنه توفي سنة ٩٣ هـ على حين أن عمر استخلف سنة ٩٩ هـ ، فكيف حمل إليه ؟

استخلاف عمر

قدمنا أن عمر بن عبد العزيز ولد سنة ٦١ أو سنة ٦٣ هـ أى زمن خلافة يزيد بن معاوية — وقد ولى الخلافة من سنة ٦٠ إلى سنة ٦٤ — ثم تابعت بعده الخلفاء : معاوية الثانى ابن يزيد سنة ٦٤ ولم يلبث فى الخلافة إلا ثلاثة أشهر ، وقيل أربعين يوماً ، ثم مروان بن الحكم — من سنة ٦٤ إلى سنة ٦٥ — ثم عبد الملك ابن مروان — من سنة ٦٥ إلى سنة ٨٦ — ثم الوليد بن عبد الملك — من سنة ٨٦ إلى سنة ٩٦ — ثم سليمان بن عبد الملك — من سنة ٩٦ إلى سنة ٩٩ — ثم عمر بن عبد العزيز — من سنة ٩٩ إلى سنة ١٠١ هـ . فهو قد ولى الخلافة بعد سليمان ابن عبد الملك .

وكان لسليمان ابن اسمه أيوب ، فعقد له ولاية العهد من بعده ، ولكن أيوب توفى سنة ٩٩ فى حياة أبيه ، ولم يبق لسليمان إلا أولاد صغار ، ثم توفى سليمان وهو ابن تسع وثلاثين سنة .

ذكروا أنه لبس يوماً حلة خضراء وعمامة خضراء ، ونظر

في المرأة — وكان حسن الوجه — فأعجبه ما رأى من جماله ،
فقال : أنا الملك الشاب ، وكانت على رأسه وصيفة له ، فرأى
شفتيها تتحركان عند قوله ما قال ، فقال : ما قلت ؟ قالت :
خيراً ، قال : فأخبريني ، وأعاد عليها ، قالت : قلت :
أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان
ليس فيما علمته فيك عيب كان في الناس غير أنك فاني
فما عاش بعد ذلك إلا أسبوعاً ، أصيب بحمى كانت
موصولة بمنيته .

فلما حضرته الوفاة أراد أن يستخلف ، فحضره عمر بن عبد
العزيز ورجاء بن حيوة ، فقال لرجاء : اعرض على ولدي في
القمص والأردية ، فعرضهم عليه ، فإذا هم صغار لا يحملون
ما لبسوا من القمص والأردية ، يسحبونها سحباً ، فنظر إليهم
وقال : يا رجاء

إن بني صبيحة صغار أفلح من كان له كبار
فقال له عمر : يا أمير المؤمنين يقول الله تبارك وتعالى : « قد
أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » ثم قال سليمان : : يا رجاء ،
اعرض على بني في السيوف ، فقلدوهم السيوف ، ثم عرضهم
عليه ، فإذا هم صغار لا يحملونها ، يجرونها جرأ ، فنظر
إليهم وقال :

إن بنى صبية صيفيون أفلح من كان له ربيعون
 فأعاد عليه عمر ما قاله أولاً ، فلما لم يرف في ولده ما يريد ،
 حدث نفسه بولاية عمر بن عبد العزيز ، لما كان يعرف من
 حاله ، فشاور رجاء فيمن يعقد له ، فأشار عليه رجاء بعمر ،
 وسدد له رأيه فيه ، فوافق ذلك سليمان وقال : لأعقدن عقداً
 لا يكون للشيطان فيه نصيب ، فلما اشتد به وجعه عهد عهداً
 كتبه بيده ولم يطلع عليه أحداً إلا رجاء بن حيوة ، وهذا
 نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير
 المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، إني وليته الخلافة بعدى ، ومن
 بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ولا
 تختلفوا فيطمع فيكم » .

وعاده عمر وبعض أهل بيته فرأوا به الموت ، فخلا عمر
 برجاء فقال له : يا رجاء إني أرى أمير المؤمنين في الموت ، ولا
 أحسبه إلا سيعهد ، وأنا أناشدك الله إن ذكرني بشيء من ذلك
 إلا صددته عني ، وإن لم يذكرني أن لا تذكرني له في شيء من
 ذلك ، فقال له رجاء : لقد ذهب ظنك مذهباً ما كنت أحسبك
 تذهبه ، أنتظن بنى عبد الملك يدخلونك في أمورهم ؟ وقد كان
 سليمان فرغ من ذلك ، ولكنه أراد إخفاءه عن عمر ، فلما قضى

سليمان قام رجاء فأخذ له البيعة من الناس ، وسلم عليه بإمرة المؤمنين
وهو يتنصل ويقول : أنشدك الله يا رجاء ، فقال رجاء : أنشدك
الله أن يضطرب بالناس جبل ، فقد لقي سليمان ربه ، وقضى
الله عليه الموت ، فقبل عمر .

عمر عقب استخلافه

ولما فرغ عمر من دفن سليمان بن عبد الملك سمع للأرض رجعة
فإذا مراكب الخلافة : البراذين والخيل والبغال ، ولكل دابة
سائس ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : مراكب الخلافة يا أمير
المؤمنين ، قربت إليك لتركبها ، فقال : مالى ولها ؟ نحوها
عنى ، دابتي أوفق لى ، فقربوا إليه بغلته فركبها ، وصرفت
تلك الدواب .

وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة ، فقال :
تنح عنى ، مالى ولك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين .

ثم أقبل سائراً فقبل : تنزل منزلة الخلافة ؟ فقال : فيه عيال
أبى أيوب — سليمان بن عبد الملك — وفى فسطاطى كفاية حتى
يتحولوا ، فأقام فى منزله حتى فرغوه بعد .

وسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ،
 واجتمع إليه الناس ، فقال :

« أيها الناس ، إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان
منى فيه ، ولا طلبه له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد

خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم .
 فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ،
 ورضينا بك ، فل أمرنا باليمن والبركة ، فلما رأى الأصوات قد
 هدأت ، ورضى به الناس جميعاً ، حمد الله وأثنى عليه ، وصلى
 على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :
 « أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شيء ،
 وليس من تقوى الله عز وجل خلف ، واعملوا لآخرتكم ، فإنه
 من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ، وأصلحوا
 سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم ، وأكثروا ذكر الموت ،
 وأحسنوا الاستعداد له قبل أن ينزل بكم ، فإنه هادم اللذات ،
 وإن من لا يذكر من آبائه — فيما بينه وبين آدم عليه السلام —
 أباً حياً لمعرق في الموت .

وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ، ولا في نبيها
 صلى الله عليه وسلم ، ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار
 والدرهم ، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ، ولا أمنع أحداً
 حقاً ، إني لست بخازن ، ولكني إنما أضع حيث أمرت .
 أيها الناس : إنه قد كان قبلي ولاية تجترون مودتهم ، بأن
 تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ، إلا لا طاعة لمخلوق في معصية
 الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا

طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم .

ثم نزل فدخل ، فأمر بالسور فهتكت ، والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحملت وأمر ببيعها وإدخال أثمانها في بيت مال المسلمين .

ثم ذهب يتبوأ مقبلاً ، فأناه ابنه عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أي بني أقيـل ، قال : تقيل ولا ترد المظالم ؟ فقال : أي بني ، إني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم ، قال : يا أمير المؤمنين ، من لك أن تعيش إلى الظهر ؟ قال : ادن مني أي بني ، فدنا منه فالتزمه وقبل بين عينيه ، وقال : الحمد لله الذي أخرج من صلبـي من يعينني على ديني ، فخرج ولم يقل ، وأمر مناديه أن ينادي : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها ، فجعل لا يدع شيئاً مما كان في يد سليمان وفي يد أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة .

فلما بلغت الخوارج سيرة عمر وما رد من المظالم اجتمعوا وقالوا : ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل .

نهجه فى حكمه

وقد نهج عمر فى حكمه نهج جده العظم عمر الفاروق ، واحتذى مثاله ، فسلك بالرعية محجته البيضاء ، وأعاد فيهم سيرته الزاكية الطاهرة ، وهاك أقرأ كتابه إلى سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب : « من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى سالم بن عبدالله

سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن الله تبارك اسمه ، وتعالى جده ، ابتلانى بما ابتلانى به من أمركم ، من غير مشورة منى فيه ولا طلب ، إلا قضاء من الرحمن الرحيم ، فأسأل الذى ابتلانى بما ابتلانى به من أمر عباده وبلاده أن يحسن عوفى وعاقبتى وعاقبة من ولانى أمرهم ، وأن يرزقنى منهم السمع والطاعة وحسن المؤازرة ، وأن يرزقهم منى الرأفة والمعدلة ، وقد رأيت أن أسير فى الناس بسيرة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، إن قضى الله ذلك واستطعت إليه سيلا ، فابعث إلى بكتب عمر وقضائه فى أهل القبلة وأهل العهد ، فإنى متبع أثره وسائر بسيرته إن شاء الله ، وأسأل الله التوفيق لما يحب ويرضى . »

وكتب أيضاً حين ولي الخلافة إلى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفرج كل ملهوف ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويدودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعته كرهاً ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتقطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى ، وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويرىهم ،

وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الجبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟ واذكريا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتروا له ولما بعده من الفرع الأكبر ، واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثوائك ، ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك في قعره فريدا وحيدا ، فتروا له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، واذكريا أمير المؤمنين إذا بعثوا في القبور ، وحصل ما في الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، فنبوء بأوزارك ، وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ، وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرنك

الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم
يا ذهاب طيباتك في آخرتك ، لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن
انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف
بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبیین والمرسلين ، وقد عنت
الوجوه للحى القيوم ، إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظمتي
ما بلغه أولو النهى من قبلي ، فلم آلك شفقة ونصحاً ، فأنزل
كتابي إليك كمدأوى حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة ، لما يرجو
له في ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين
ورحمة الله وبركاته »

ردّه المظالم

ومن مآثره التي تذكر له بالحمد والإكبار أنه بدأ عمله في خلافته برد المظالم ، وبدأ في ذلك بنفسه فقال : إنه لينبغي ألا أبدأ بأول من نفسي ، فنظر إلى ما في يديه من أرض أو متاع فخرج منه ، حتى نظر إلى فص خاتم كان في يده فقال : هذا أعطانيه الوليد من غير حقه مما جاء من أرض المغرب ، فردّه .

وخرج مما كان في يده من القطائع ، وكان في يده قطائع باليمامة ، والمكيدس وجبل الورد باليمن ، وفدك ، فخرج من ذلك كله ، وردّه إلى المسلمين ، إلا أنه ترك عيناً بالسويداء ، وكان استنبطها بعطائه ، فكانت تأتيه غلتها كل سنة ، مائة وخمسون ديناراً أو أقل أو أكثر .

ولما أزمع أن يرد ما لديه ، أمر فنودي في الناس : الصلاة جامعة ، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها ، وما كان ينبغي لهم أن يعطوناها ، وإن ذلك قد صار إلى ، ليس على فيه دون الله محاسب ، ألا وإني قد رددتها ،

وبدأت بنفسى وأهل بيتى « اقرأ يا مزاحم - وقد جىء قبل ذلك بسفط فيه تلك الكتب - فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً فيأخذه عمر وييده مقص فيقصه به ، حتى لم يبق فيه شيء إلا شقه .

ثم ثنى بزوجه فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم ير مثله ، فقال لها : اختارى إما أن تردى حليك إلى بيت المال ، وإما أن تأذنى لى فى فراقك ، فإنى أكره أن أكون أنا وأنت فى بيت واحد ، قالت : لا ، بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لى ، فأمر به فحمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين ، فلما مات عمر واستخلف يزيد بن عبد الملك ، قال لأخته فاطمة : إن شئت رددته عليك ، قالت : فإنى لا أشاؤه ، طببت عنه نفساً فى حياة عمر وأرجع فيه بعد موته ! لا والله أبداً ، فلما رأى ذلك قسمه بين أهله وولده .

ولا بأس أن نسوق إليك كلمة نحدثك فيها عن « فذك » لما كان لها من عظيم القيمة فنقول :

فذك : قرية نخير فيها عين ونخل كثير ، بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم سنة سبع صلحاً ، فكانت خالصة له ينفق ما يأتیه منها فى أبناء السبيل ،

فلما قبض عليه السلام جاءت فاطمة رضى الله عنها أبا بكر رضى الله عنه فطلبت ميراثها من أبيها ، وهو أرضه من فذك ، وسهمه من خير ، فقال لها أبو بكر : أما إني سمعت رسول الله يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة ، إنما يأكل آل محمد من هذا المال ، وإني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته . فهجرته فاطمة فلم تكلمه في ذلك حتى ماتت ، وروى أنه قال لها : سمعت رسول الله يقول : إنما هي طعمة أطعمنيها الله تعالى حياتي ، فإذا مت فهي بين المسلمين ، وروى أيضاً أنها قالت له : إن رسول الله جعل لي فذك فأعطني إياها ، وشهد لها على بن أبي طالب رضى الله عنه ، فسألها شاهداً آخر ، فشهدت لها أم أيمن مولاة رسول الله ، فقال : قد علمت يا بنت رسول الله أنه لا يجوز إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين فانصرفت .

ثم أدى اجتهاد عمر بن الخطاب ، لما ولى الخلافة وفتحت الفتوح واتسعت على المسلمين ، أن يردها إلى ورثة رسول الله ، فكان على بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب يتنازعا فيها ، فكان على يقول : إن رسول الله جعلها في حياته لفاطمة ، وكان العباس يأبى ذلك ويقول : هي ملك رسول الله وأنا وارثه ، فكانا يتخاصمان إلى عمر : فيأبى أن يحكم بينهما ويقول : أنما

أعرف بشأنكما ، أما أنا فقد سلمتها إليكما ، وقيل إنه لما قبض عليه السلام فعل أبو بكر وعمر وعثمان وعلى في فذك مثل فعله من وضع ما يأتي منها في أبناء السبيل .

فلما ولي معاوية ولي مروان بن الحكم المدينة ، فكتب إلى معاوية يطلب فذك ، فأقطعه إياها ، فكانت بيد مروان يبيع تمرها كل سنة بعشرة آلاف درهم ، ثم نزع مروان فترع يده منها ، فكانت بيد وكيله بالمدينة ، فلما ولي مروان المدينة المرة الأخيرة ردها عليه ، فأعطى ابنه عبد الملك نصفها وابنه عبد العزيز نصفها ، ثم صارت إلى الوليد وسليمان ابني عبد الملك وإلى عمر بن عبد العزيز ، وطلب عمر إلى الوليد حصته فوهبها له ، وسأل سليمان حصته فوهبها له أيضاً ، فاستجمعها عمر ، وولى الخلافة وما يقوم به وبعياله إلا هي ، تغل كل سنة عشرة آلاف أو أقل أو أكثر ، وما كان له مال أحب إليه منها ، فسأل عنها فأخبر بما كان من أمرها ، فخطب الناس وقص قصة فذك ثم قال : وإني أشهدكم أني قد رددتها إلى ما كانت عليه على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان وعلى ، وكتب إلى أبي بكر ابن حزم عامله بالمدينة كتاباً يقول فيه :

« إني نظرت في أمر فذك فإذا هولا يصلح ، فرأيت أن أردّها إلى ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وإني بكر وعمر وعثمان فاقبضها ولها رجلا يقوم فيها بالحق، وسلام عليك » .

فكان يأخذ مالها فيخرجه في أبناء السبيل .

وروى أن عمر لما ولي الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة يأمره برد فذك إلى ولد فاطمة رضى الله عنها ، فكانت في أيديهم في أيامه ، فلما ولي يزيد بن عبد الملك قبضها فلم تزل في أيدي بني أمية ، حتى ولي أبو العباس السفاح الخلافة ، فدفعها إلى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فكان هو القيم عليها يفرقها في بني علي بن أبي طالب ، فلما ولي المنصور وخرج عليه بنو الحسن قبضها عنهم ، فلما ولي المهدي الخلافة أعادها عليهم ، ثم قبضها منهم الهادي ومن بعده إلى أيام المأمون ، فجاءه رسول بني علي فطالب بها فأمر أن يسجل لهم بها ، فكتب السجل وقرأ على المأمون فقام دعبل الشاعر فأنشد :
أصبح وجه الزمان قد ضحكا برد مأمون هاشم فدكا
فلما استخلف المتوكل ردها إلى ما كانت عليه في عهد رسول الله .

ونعود إلى أصل البحث فنقول : إن عمر لم يكتف برد ما كان في يده من المظالم ، بل ذكروا أنه كان لا يأخذ من بيت المال شيئاً ، ولا يجرى على نفسه من النوى درهماً ، وكان عمر بن

الخطاب يجري على نفسه من ذلك درهمين في كل يوم ، فقيل
 لعمر بن عبد العزيز : لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب ،
 فقال : إن عمر بن الخطاب لم يكن له مال ، وأنا مالى يغنينى .
 وكذلك حمل بنى مروان على التزول عما كان فى أيديهم من
 الأموال بغير استحقاق ، وردها إلى ذويها ، روى أنه جاءه
 رجل ذى من أهل حمص فقال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله ،
 قال : وما ذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني
 أرضي — والعباس جالس — فقال له : يا عباس ما تقول ؟
 قال : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وكتب لى بها
 سجلا ، فقال : ما تقول يا ذى ؟ قال : يا أمير المؤمنين أسألك
 كتاب الله عز وجل ، فقال عمر : نعم ، كتاب الله أحق أن
 يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، يا عباس اردد عليه
 ضيعته ، فردها عليه .

وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له روح ، وكان نشأ
 فى البادية فكأنه أعرابي ، فأتى ناس من المسلمين إلى عمر
 يخاصمون روحا فى حوانيت بجمص — وكانت لهم ، أقطعه
 إياها أبوه الوليد — فقال له عمر : اردد عليهم حوانيتهم ، قال له
 روح : لأنها لى بسجل الوليد ، قال : ما يغنى عنك سجل الوليد ،
 الحوانيت حوانيتهم قد قامت لهم البيئة عليها ، خل لهم حوانيتهم ،

فقام روح والحمصى منصرفين ، فتوعد روح الحمصى ، فرجع إلى عمر فقال : هو والله يتوعدنى يا أمير المؤمنين ، فقال عمر لكعب بن حامد — وهو على حرسه — اخرج إلى روح يا كعب ، فإن سلم إليه جوانيته فذال ، وإلا فأتنى برأسه . فخرج بعض من سمع ذلك ممن يحنيه أمر روح ، فذكر له الذى أمر به عمر ، فخلع فؤاده ، وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبرا فقال له : قم فخل له جوانيته ، قال : نعم نعم ، فخلى له جوانيته .

وتتابع الناس فى رفع المظالم إليه ، فما رفعت إليه مظلمة إلا ردها سواء كانت فى يده أو فى يد غيره ، حتى أخذ أموال بنى مروان وغيرهم مما صار إليهم ظلماً ، وكان يرد المظالم إلى أهلها بغير البيئة القاطعة ، وكان يكتفى باليسير ، فإذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البيئة لما يعرف من ظلم الولاة قبله للناس ، وقد ذكروا أنه أنفد بيت مال العراق فى رد المظالم حتى حمل إليها من الشام .

وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر لعنيسة بن سعيد بن العاص — من البيت الأموى — بعشرين ألف دينار ، فدارت فى الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم فلم يبق إلا قبضها ، فتوفى سليمان قبل أن يقبضها ، وكان عنيسة صديقاً لعمر بن

عبدالعزيز ، فغدا يريد كلام عمر فيما أمر له به سليمان ، فوجد بني أمية حضوراً بباب عمر يريدون الإذن عليه ليكلموه في أمورهم ، فلما رأوا عنبة قالوا : ننظر ما يصنع به قبل أن نكلمه ، فدخل عنبة عليه فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لي بعشرين ألف دينار حتى انتهت إلى ديوان الختم ولم يبق إلا قبضها ، فتوفى على ذلك ، وأمير المؤمنين أولى باستتمام الصنعة عندي ، وما بيني وبينه أعظم مما كان بيني وبين أمير المؤمنين سليمان ، فقال له عمر : كم ذلك ؟ قال : عشرون ألف دينار ، قال عمر : عشرون ألف دينار تغني أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وأدفعها إلى رجل واحد ! والله ما لي إلى ذلك من سبيل ، قال عنبة : فرميت بالكتاب الذي فيه الصك ، فقال لي عمر : لا عليك أن يكون معك ، فلعله أن يأتيك من هو أجراً على هذا المال مني فيأمر لك به ، فأخذته وخرجت إلى بني أمية فأعلمتهم ما كان من ذلك فقالوا : ليس بعد هذا شيء ، ارجع إليه فاسأله أن يأذن لنا أن نلحق بالبلدان ، فرجعت إليه فقلت : يا أمير المؤمنين إن قومك بالباب يسألونك أن تجرى عليهم ما كان من قبلك يجرى عليهم ، فقال عمر : والله ما هذا المال لي ، ومالي إلى ذلك من سبيل ، قلت : يا أمير المؤمنين ، فيسألونك أن تأذن لهم يضربون في

البلدان ، قال : ما شاءوا ذلك لهم ، وقد أذنت لهم ، قلت : وأنا أيضاً ، قال : وأنت أيضاً قد أذنت لك ، ولكنى أرى لك أن تقيم ، فإنك رجل كثير النقد ، وأنا أبيع تركة سليمان فلعلك أن تشتري منها ما يكون لك فى ربحه عوض مما فاتك ، قال : فأقمت فابتعت من تركة سليمان بمائة ألف ، فخرجت بها إلى العراق فبعتها بمائتى ألف ، وحبست الصك فلما توفى عمروولى يزيد بن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان ، فأنفذ لى ما كان فيه .

وجمع عمر بنى مروان فقال لهم : يا بنى مروان ، إنكم قد أعطيتم حظاً وشرفاً وأموالاً ، وإنى لأحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثيها فى أيديكم ، فأدوا ما فى أيديكم من حقوق الناس ، ولا تلجئوني إلى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون ، فلم يجبه أحد منهم ، فقال : أجيئوني ، فقال رجل منهم : والله لا نخرج من أموالنا التى صارت إلينا من آباءنا فنفقر أبناءنا ونكفر آباءنا ، حتى تزايل رءوسنا أجسادنا ، فقال عمر : والله لولا أن تستعينوا على بمن أطلب هذا الحق له ، لأضرعت خدودكم عاجلاً ، ولكنى أخاف الفتنة ، ولئن أبقانى الله لأردن إلى كل ذى حق حقه إن شاء الله .

وذكروا أنه لما منع قرابته ما كان يجرى عليهم من أرزاق الخاصة ، وأخذ منهم القطائع التى كانت فى أيديهم ، شكوه إلى

عمته أم عمر ، فدخلت عليه فقالت : إن قرابتك يشكونك
 ويزعمون أنك أخذت منهم خبز غيرك ، قال : ما منعهم حقاً
 أوشيتاً كان لهم ، فقالت : إني رأيتهم يتكلمون ، وإني أخاف
 أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً ، فقال : كل يوم أخافه دون
 يوم القيامة فلا وقاني الله شره .

فلما رجعت إلى بني أمية قالت لهم : ذوقوا مغبة أمركم في
 تزويجكم آل عمر بن الخطاب .

وضحج بنو أمية من فعل عمر بن عبد العزيز بهم ، فاجتمعوا
 إلى عمر بن الوليد بن عبد الملك — وكان كبيرهم وشيخهم —
 فسألوه أن يكتب إلى عمر يوبخه لعله أن يرده عن مسألتهم ،
 فكتب إليه :

«إنك أزريت علي من كان قبلك من الخلفاء ، وعبت
 عليهم ، وسرت بغير سيرتهم ، وسميتها المظالم ، بغضاً لهم وشنائاً
 لمن بعدهم من أولادهم ، وقطعت ما أمر الله به أن يوصل ، إذ
 عمدت إلى أموال قریش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جوراً
 وعدواناً ، يا ابن عبد العزيز اتق الله وراقبه إن شططت ، لم
 تطمئن على منبرك حتى خصصت أول قرابتك بالظلم والجور ،
 فوالذي خص محمداً صلى الله عليه وسلم بما خصه به ، لقد
 ازددت من الله بعداً في ولايتك هذه ، إذ زعمت أنها عليك

بلاء ، فأقصر بعض ميلك ، واعلم أنك بعين جبار ، وفي قبضته ، ولن تترك على هذا .

فلما قرأ عمر كتابه كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد : السلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، أما بعد : فإنه بلغني كتابك وسأجيئك بنحو منه :

أما أول شأنك يا بن الوليد فإن أملك بنانة أمة السكون كانت تطوف في أسواق حمص وتدخل في حوانيتها ، ثم الله أعلم بها ، اشتراها ذبيان بن ذبيان من فيء المسلمين ، فأهداها لأبيك ، فحملت بك ، فبئس الحامل وبئس المحمول ، ثم نشأت فكنت جبارا عنيداً .

ترعم أنى من الظالمين ، لأنى حرمتك وأهل بيتك فيء الله عز وجل الذى هو حق القرابة والمساكين والأرامل ، وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعملك صبيهاً سفيهاً على جند المسلمين تحكم بينهم برأيك ، ولم تكن له فى ذلك نية إلا حب الوالد لولده ، فويل لك وويل لأبيك ، ما أكثر خصماء كما يوم القيامة ، وكيف ينجو أبوك من خصمائه ؟

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف على خمس العرب ، يسفك الدم الحرام ، ويأخذ المال الحرام .

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك
 أعرايياً جافياً على مصر ، وأذن له في المعازف واللهو والشراب .
 وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية
 سهماً في الخمس .

فرويداً يا بن بنانة فلو التقت حلقتا البطان ، ورد النوى
 إلى أهله ، لتفرغت لك ولأهل بيتك ، فوضعتكم على المحجة
 البيضاء ، فطالما تركتم الحق ، وأخذتم في بنيات الطريق ،
 ومن وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أكون رأيته : بيع رقبتك
 وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل ، فإن لكل فيك
 حقاً ، والسلام علينا ولا ينال سلام الله الظالمين » .

إبطاله لعن عليّ المنابر

ومن مآثره أنه أمر بالكف عن لعن علي كرم الله وجهه على المنابر ، وهي سنة كان جرى عليها الأمويون منذ خلافة معاوية . ذكروا أن معاوية كتب نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب (علي) وأهل بيته ، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرءون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته .

وكتب إلى عماله في جميع الآفاق ألا يميزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة ، ثم كتب إليهم : انظروا إلى من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فاحموه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه ، وشفع ذلك بنسخة أخرى : من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره . فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي رضي الله عنه (سنة ٥٠ هـ) فازداد البلاء والفتنة .

وحج معاوية بعد موته فدخل المدينة وأراد أن يلعن علياً

على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له : إن ها هنا سعد ابن أبي وقاص ، ولا تراه يرضى بهذا ، فابعث إليه وخذ رأييه ، فأرسل إليه وذكر له ذلك فقال : إن فعلت لأخرجن من المسجد ثم لا أعود إليه ، فأمسك معاوية عن لعنه حتى مات سعد ، فلما مات (سنة ٥٥) لعنه على المنبر ، وكتب إلى عماله أن يلعنوه على المنابر ففعلوا ، فكتبت أم سلمة زوج رسول الله إلى معاوية : إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم ، وذلك أنكم تلعنون على بن أبي طالب ومن أحبه ، وأنا أشهد أن الله أحبه ورسوله ، فلم يلتفت إلى كلامها .

وغبر الخلفاء من بعده على هذا الحال حتى ولى عمر بن عبد العزيز ، فأمر بالإقلاع عن لعنه على المنابر ، وجعل مكانه : « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » وقيل : بل جعل مكان ذلك : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » وقيل بل جعلهما جميعاً ، فاستعمل الناس ذلك في الخطبة .

ولا يخفى ما فى اختيار الآية الأولى أو الثانية من إشارة لطيفة إلى ما يجب أن يكون بين المؤمنين من تناسى الأحقاد

والأضغان ، وتطهير قلوبهم من الغل ، وتذكير الأمويين بأن للقرابة
التي تنتظمهم والهاشميين حقوقاً توجب عليهم أن يصونوا
ألسنتهم عن سبهم والوقعة فيهم .

اختباره من يريد توليتهم

ولما ولي عمر الخلافة وقد عليه بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري فهناه فقال : من كانت الخلافة يا أمير المؤمنين شرفته فقد شرفتها ، ومن كانت زانته فقد زنتها ، وأنت والله كما قال مالك بن أسماء :

وتريدين طيب الطيب طيباً إن تمسيه ، أين مثلك أيننا وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا فجزاه عمر خيراً ، ولزم بلال المسجد يصلي ويقرأ ليله ونهاره ، فهم عمر أن يوليه العراق ، وقال للعلاء بن المغيرة : إن يكن سر هذا كعلانيته فهو رجل العراق غير مدافع ، ودسه إليه ليأتيه بخبره ، فأتاه العلاء فقال له : قد عرفت حالي من أمير المؤمنين ، فإن أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لي ؟ قال : لك عمالي سنة — وكان مبلغها عشرين ألف ألف درهم — قال : فاكتب لي بذلك ، فأسرع بلال إلى منزله فأتى بدواة وصحيفة ، فكتب له بذلك ، فأتى العلاء عمر بالكتاب ، فنفاه عمر وأخرجه وقال : يا أهل العراق ، إن صاحبكم أعطى

مقولا ، ولم يعط معقولا ، وزادت بلاغته ، ونقصت زهادته .
وكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب
والى الكوفة :

« أما بعد ، فإن بلالا غرنا بالله ، فكدنا نغتر ، فسبكناه
فوجدناه خبثاً كله ، والسلام » .

عمر ويزيد بن المهلب

لما ولي سليمان بن عبد الملك الخلافة (سنة ٩٦ هـ) ولي يزيد ابن المهلب أمر العراق ، ثم ولاه (سنة ٩٧) خراسان ، وفي سنة ٩٨ فتح يزيد جرجان وطبرستان ، وكتب بالفتح إلى سليمان بن عبد الملك ، وقد جاء في كتابه إليه : « وقد صار عندي من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذي حق حقه من النىء والغنيمة ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله » فقال له كاتبه المغيرة بن أبي قرة مولى بني سدوس : « لا تكتب بتسمية مال ، فإنك من ذلك بين أمرين : إما استكثره فأمرك بحمله ، وإما سحت نفسه لك به فسوغكه ، فتكلفت الهدية ، فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استقله ، فكأنى بك قد استغرقت ما سميت ولم يقع منه موقعا ، ويبقى المال الذى سميت مخلدأ عندهم عليك فى دواوينهم ، فإن ولي وال بعده أخذك به ، وإن ولي من يتحامل عليك لم يرض منك بأضعافه ، فلا تمض كتابك ، ولكن اكتب بالفتح وسله القدوم فتشافه بما أحبيت مشافهة وتقصر ، فإنك أن

تقصر عما أحببت أخرى من أن تكثر ، فأبى يزيد وأمضى الكتاب .

وقد صدق حدس المغيرة ، فإن عمر بن عبدالعزيز لما ولي الخلافة بعد سليمان — وكان عمر يبغض يزيد وأهل بيته ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم — دعا يزيد وسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان ، فقال له : كنت من سليمان بالمكان الذي رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني بشيء سمعت به ولا بأمر أكرهه ، فقال له : ما أجد في أمرك إلا حبسك ، فأتق الله وأد ما قبلك ، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها ، وأمر به فحبس ، وبعث إلى الجراح بن عبد الله الحكمي فسرجه إلى خراسان .

وأقبل مخلد بن يزيد بن المهلب من خراسان حتى قدم على عمر ، فدخل عليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله يا أمير المؤمنين صنع لهذه الأمة بولايتك عليها ، وقد ابتلينا بك ، فلا نكن أشقى الناس بولايتك ، علام تحبس هذا الشيخ ؟ أنا أتحمل ما عليه ، فصالحني على ما إياه تسأل ، فقال عمر : لا ، إلا أن تحمل جميع ما نسأله إياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت لك بيعة فخذ بها ، وإن لم تكن بيعة فصدق مقالة يزيد وإلا فاستحلفه ، فإن لم يفعل فصالحه ، فقال له

عمر : ما أجد إلا أخذه بجميع المال ، وخرج مخلد فلم يلبث إلا قليلا حتى مات .

فلما أبى يزيد أن يؤدي إلى عمر شيئا ألبسه جبة من صوف وحمله على جمل ثم قال : سيروا به إلى دهلك ، فلما أخرج فمر به على الناس أخذ يقول : ما لي عشيرة ! ما لي يذهب بي إلى دهلك ! إنما يذهب إلى دهلك بالفاسق المريب الحارب ، سبحان الله ، أما لي عشيرة ! فدخل على عمر سلامة بن نعيم فقال : يا أمير المؤمنين ، اردد يزيد إلى محبسه ، فإني أخاف إن أمضيته أن ينتزعه قومه ، فإني قد رأيت قومه قد غضبوا له . فردّه إلى محبسه ، فلم يزل فيه حتى بلغه مرض عمر ، فأخذ يعمل للهرب مخافة يزيد بن عبد الملك من بعده ، لأنه كان قد عذب أصحابه آل أبي عقيل (آل الحجاج) - إذ كانت أم الحجاج بنت محمد ابن يوسف أخى الحجاج بن يوسف عند يزيد بن عبد الملك ، فولدت له الوليد بن يزيد - وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهد الله لئن أمكنه الله من يزيد بن المهلب ليقطعن منه طابقا ، فخشي ذلك فهرب من السجن سنة ١٠١ هـ ، ومات عمر وأفضت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك ، ولحق يزيد بن المهلب بالبصرة ، وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها - وهو عدى بن أوطاة

الفزاري - فحبسه وخلع يزيد ، فسير إليه الخليفة العباس بن الوليد بن عبد الملك ومسلمة بن عبد الملك لحربه ، فقتل ابن المهلب في أثناء المعركة سنة ١٠٢ هـ .

قوته فى الجدل

كان للثقافة الدينية والأدبية التى تلقاها عمر فى المدينة أثر بعيد المدى فى قوة حجته وشدة عارضته ، وترى ذلك جلياً فى حجاجه وجداله مع الخوارج ، وكانوا قوماً لئداً يلجون فى الحصومة ، ولا يفيئون إلى الحق ، ولكن عمر كان يفهمهم ويدحض حججهم ، وكان يصاولهم بحذق ومهارة ويضيق عليهم الحناق حتى يضطروهم إلى الإذعان والتسليم .

ذكروا أنه خرج سنة مائة بالجزيرة شاذب الخارجى - واسمه بسطام ، من بنى يشكر - فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : بلغنى أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولست أولى بذلك منى ، فهل إلى أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرنا ، فكتب بسطام إلى عمر : قد أنصفت : وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبنى شيان حبشياً اسمه عاصم ورجلا من من بنى يشكر ، فقدموا على عمر بخناصرة ، فأخبر بمكانهما فقال : فتشوهما لا يكن معهما حديد وأدخلوهما ، فلما

دخلا قالوا : السلام عليك ، ثم جلسا .

فقال لهما عمر : أخبراني ، ما الذي أخرجكم مخرجكم هذا ؟ وما نقمتم علينا ؟ فقال عاصم : ما نقمنا سيرتك ، إنك لتتحرى العدل والإحسان ، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا من الناس ومشورة ، أم ابتزتم أمرهم ؟ فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ، وعهد إلى رجل كان قبلي فقامت ولم ينكره على أحد ، ولم يكرهه غيركم ، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف ، من كان من الناس ، فاتركوني ذلك الرجل ، فإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم ، فقالوا : بيننا وبينك أمر ، إن أنت أعطيتناه فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتناه فلست منا ولسنا منك ، فقال عمر : وما هو ؟ قالوا : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها مظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وتبرأ منهم ، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يفرق ، فتكلم عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب الدنيا ومتاعها ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها ، إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعاناً ، وقال إبراهيم : « فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم » وقال

الله عز وجل : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » وقد سميت أعمالهم ظلماً ، وكفى بذلك ذمّاً ونقصاً ، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها ، فإن قلتم إنها فريضة فأخبرني : متى لعنت فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنته ، قال : أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ، ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون ! قال : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال : لا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان ، فكان من أقرّ به وبشرائعه قبل منه ، فإن أحدث حدثاً أقيم عليه الحد ، فقال الخارجي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده ، قال عمر : فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء ، قال عاصم : فابراً ممن خالف عملك ، ورد أحكامهم ، قال عمر : أخبراني عن أبي بكر وعمر : أليسا من أسلافكما ، ومن تتوليان ، وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قال : اللهم نعم ، قال : فهل علمتما أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسبي الذراري ؟ قال : نعم ، قال : فهل علمتما أن عمر قام بعد أبي بكر فرد تلك السبايا

إلى عشائرها بفدية ؟ قالوا : نعم ، قال : فهل برئ عمر من أبي بكر ، أو تبرعون أنتم من أحد منهما ؟ قالوا : لا ، قال : فأخبراني عن أهل النهر وان ، أليسوا من صالحى أسلافكم ، ومن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قالوا : بلى ، قال : فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم فلم ينفكوا دماً ، ولم يخيفوا آمناً ، ولم يأخذوا مالا ؟ قالوا : نعم ، قال : فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن فديك استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبد الله بن خباب بن الارت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوه وقتلوا جاريته ؟ ثم صبحوا حياً من أحياء العرب فاستعرضوهم فقتلوا الرجال والنساء والأطفال ، حتى جعلوا يلقون الصبيان فى قدور الأقط وهى تفور ؟ قالوا : قد كان ذلك ، قال : فهل برئ أهل البصرة من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قالوا : لا ، قال : فهل تبرعون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قالوا : لا ، قال : أرأيتم الدين واحداً أم اثنين ؟ قالوا : بل واحداً ، قال : فهل يسعكم فيه شيء يعجز عنى ؟ قالوا : لا ، قال : فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر ، وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة ، وتولى بعضهم بعضاً ، وقد اختلفوا فى أعظم الأشياء : فى الدماء والفروج والأموال ، ولا يسعنى فيما زعمتم إلا لعن أهل بيتى

والتبرؤ منهم ! ويحكم ! إنكم قوم جهال ، أردتم أمراً فأخطأتموه ،
فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ويأمن عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من
أمن عنده ، قالوا : ما نحن كذلك ، قال عمر : بل سوف
تقرون بذلك الآن ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم بعث إلى الناس وهم عبدة أوثان ، فدعاهم إلى خلع
الأوثان ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فن
فعل ذلك حقن دمه وأحرز ماله ، ووجبت حرمة ، وكانت
له أسوة المسلمين ؟ قالوا نعم ، قال : أفلستم أنتم
تلقون من يخلع الأوثان ، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً
رسول الله ، فتستحلون دمه وماله ، وتلقون من ترك ذلك وأباه
من اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرمون دمه ؟
فقال اليشكري : رأيت رجلاً ولي قوماً وأمواهم فعدل فيها ، ثم
صيرها بعده إلى رجل غير مأمون ، أترأه أدى الحق الذي يلزمه
لله عز وجل ؟ أو تراه قد سلم ؟ قال عمر : لا ، قال : أفنسلم
هذا الأمر إلى « يزيد » من بعدك ، وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه
بالحق ؟ قال : إنما ولاء غيري ، والمسلمون أولى بما يكون منهم
فيه بعدى ، قال : أفترى ذلك من صنع من ولاء حقاً ؟ فبكى
عمر وقال : أنظراني ثلاثاً ، فخرجنا من عنده ، ثم عادا إليه ،

فقال عاصم : أشهد أنك على حق ، فقال عمر للبشكري :
 ما تقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما وصفت ، ولكن لا أفئات
 على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم حاجتهم .
 فأما عاصم فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالعطاء ، فتوفي
 بعد خمسة عشر يوما ، فكان عمر يقول : أهلكني أمر يزيد ،
 وخصمت فيه فأستغفر الله ، فخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم
 من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ، فوضعوا على
 عمر من سقاه سما ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثا ، حتى
 مرض ومات .

* * *

وكذلك كانت حاجته قوية متينة في حاجته طائفة القدرية
 — وهم الذين ينكرون قدر الله تعالى ، ويغالون في إثبات القدرة
 للإنسان ، وأنه لا يحتاج إلى معونة إلهية في أعماله — وتبين
 ذلك في مناظرته غيلان الدمشقي في القدر :

حكى ابن مهاجر قال : بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان وفلان
 نطقا في القدر ، فأرسل إليهما وقال : ما الأمر الذي تنطقان به ؟
 فقالا : هو ما قال الله يا أمير المؤمنين ، قال : وما قال الله ؟
 قالا : قال : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا
 مذكورا » ثم قال : « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا »

ثم سكتا ، فقال عمر : اقرأ ، فقرأ حتى بلغا : « إن هذه تذكرة
فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله ...
إلى آخر السورة » قال : كيف تريان ... ؟ تأخذان الفروع ،
وتدعان الأصول !

قال ابن مهاجر : ثم بلغ عمر بن عبد العزيز أنهما أسرفا ،
فأرسل إليهما وهو مغضب ، فقام عمر وكنث خلفه قائماً حتى
دخل عليه ، وأنا مستقبلهما ، فقال لهما : ألم يكن في سابق
علم الله حين أمر الله إبليس بالسجود أن لا يسجد ؟ قال : فأومأت
إليهما برأسي أن قولاً نعم ، وإلا فهو الذبح ، فقالا : نعم ،
فقال : أولم يكن في سابق علم الله حين نهى آدم وحواء عن
الشجرة أن يأكلا منها ، فألهما أن يأكلا منها ؟ فأومأت إليهما
برأسي ، فقالا : نعم ، فأمر بإخراجهما وأمر بالكتاب إلى سائر
الأعمال بخلاف ما يقولان ، وأمسكا عن الكلام فلم يلبثا
إلا يسيرا حتى مرض عمر ومات ولم يفد الكتاب ، وسال بعد
ذلك منهما السبل .

وكان غيلان قد تاب على يد عمر فقال : يا أمير المؤمنين ،
لقد جئتكم ضالاً فهديتني ، وأعمى فبصرتنى ، وجاهلاً فعلمتنى ،
والله لا أتكلم في شيء من هذا الأمر أبداً ، فقال عمر : اللهم
إن كان كاذباً فلا تمته حتى تذيبه حر السيف ، فقطعت يداه

ورجلاله وصلب في أيام هشام بن عبد الملك حين قال : يا غيلان ،
 ما هذه المقالة التي بلغتني عنك في القدر ؟ فقال : يا أمير
 المؤمنين هو ما بلغك ، فأحضر من أحييت يحاجني ، فإن غلبني
 ضربت رقبتى ، فأحضر الأوزاعي ، فقال له الأوزاعي :
 يا غيلان إن شئت ألقيت عليك سبعا ، وإن شئت خمسا ،
 وإن شئت ثلاثا ، فقال : ألق ثلاثا ، فقال له : أقضى الله على
 عبد ما نهى عنه ؟ قال : ما أدري ما تقول ، قال : فأمر الله
 بأمر حال دونه ؟ قال : هذه أشد من الأولى ، قال : فحرم الله
 حراماً ثم أحله ؟ قال : ما أدري ما تقول ، قال : فأمر به هشام
 فقطعت يده ورجلاه فمات ، وقيل صلب حياً على باب
 كيسان بدمشق .

ثم قال هشام للأوزاعي : يا أبا عمر ، فسر لنا ما قلت ،
 قال : قضى الله على عبد ما نهى عنه : نهى آدم أن يأكل
 من الشجرة ، ثم قضى عليه فأكل منها ، وأمر إبليس أن
 يسجد لآدم ، وحال بين إبليس والسجود ، وقال : « حرمت
 عليكم الميتة » ثم قال : « فن اضطر في مخمصة غير متجانف
 لإثم فإن الله غفور رحيم » فأحلها بعد ما حرمها .

وقيل لغيلان : من كان أشد عليك ؟ قال : عمر بن عبد
 العزيز : كأنما كان يلقي من السماء .

وكتب إلى نفر كتبوا بالتكذيب بالقدر :

« أما بعد : فقد علمتم أن أهل السنة كانوا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة ، وسينقص العلم نقصاً سريعاً ، ومنه قول عمر بن الخطاب وهو يعظ : إنه لا عذر لأحد عبد الله بعد البينة بضلالة ركبها حسبها هدى ، ولا في هدى تركه حسبه ضلالة ، فقد تبينت الأمور ، وثبتت الحجة ، وانقطع العذر ، فمن رغب عن أنباء النبوة وما جاء به الكتاب ، تقطعت من يده أسباب الهدى ، ولم يجد له عصمة ينجوها من الردى .

وبلغكم أنى أقول : إن الله قد علم ما العباد عاملون ، فأنكرتم ذلك ، وقد قال تعالى « إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون » وقال : « ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه » وزعمتم في قول الله : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » أن المشيئة في أى ذلك أحببت : من ضلال أو هدى ، والله يقول : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » فبمشيئته لهم شاءوا ، وقد حرصت الرسل على هدى الناس جميعاً ، فما اهتدى إلا من هداه الله ، وحرص إبليس على ضلالتهم جميعاً ، فما ضل منهم إلا من كان في علم الله ضالاً ، وأنكرتم أن يكون سبق لأحد من الله ضلالة أو هدى ، وأنكم الذين هديتم أنفسكم من دون الله ، وحجرتموها عن المعصية

بغير قوة من الله ، ومن زعم ذلك منكم فقد غلا في القول ، لأنه لو كان شيء لم يسبق في علم الله وقدره ، لكان لله في ملكه شريك تنفذ مشيئته في الخلق دون الله ، والله يقول : « حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان » وسميتم نفاذ الله في الخلق حيفاً وقد جاء الخبر « إن الله عز وجل خلق آدم فثر ذريته بين يديه ، فكتب أهل الجنة وما هم عاملون ، وكتب أهل النار وما هم عاملون » .

عمر والشعراء أيام خلافته

حدثناك من قبل عن عمر والشعراء أيام إمارته على المدينة ،
ونحدثك الآن عن عمر والشعراء أيام خلافته فنقول :
لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء كما كانت
تفد إلى الخلفاء قبله ، وكان فيمن حضر نصيب وجريروانقرزدق
والأحوص وكثير والحجاج القضاعي والأخطل ، فأقاموا ببابه
شهرًا لا يأذن لهم بالدخول — ولم يكن لعمر فيهم رأى ولا
أرب ، وإنما كان رأيه وبطانته وأهل أربه القراء والفقهاء ومن
وسم عنده بورع ، يبعث إليهم حيث كانوا من بلدانهم — حتى
قدم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي ، وكان ورعاً
فقيهاً مفوهاً في المنطق ، فرآه جرير على باب عمر معتماً بعمامة
قد أرخى طرفيها ، فصاح به جرير :
يأيتها القارئ المرخي عمامته هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه أنى لدى الباب كالمصفود في قرن
وحش المكانة من أهلي ومن ولدي
نأى المحلة عن داري وعن وطني

قال : نعم ، أبا حذرة ، ونعمى عين ، فلما دخل على عمر
قال : يا أمير المؤمنين إن الشعراء يبابك ، وسهامهم مسمومة ،
وأقوالهم نافذة باقية ، فقال : ويحك ! مالى وللشعراء ؟ قال : أعز
الله أمير المؤمنين ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح
وأعطى ، وفى رسول الله أسوة لكل مسلم ، قال : ومن مدحه ؟
قال : عباس بن مرداس ، فكساه حلة قطع بها لسانه ، قال :
وتروى من قوله شيئاً ؟ قال : نعم ، وأنشده :

رأيتك يا خير البرية كلها نشرت كتاباً جاء بالحق معلماً
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا

عن الحق لما أصبح الحق مظلماً
ونورت بالتبيان أمراً مدمساً وأطفأت بالبرهان نارا تضرماً
فمن مبلغ عنى النبي محمداً وكل امرئ ينجز بما كان قدماً
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه .

وكان قديماً ركنه قد تهدماً
قال : صدقت ، فمن الباب منهم ؟ قال : ابن عمك عمر
ابن أبي ربيعة ، قال : لا قرب الله قرابته ، ولا حيا وجهه ،
أليس هو القائل :

ألا ليت أنى يوم حانت منيتى

شممت الذى ما بين عينيك والنم

وليت طهورى كان ريقك كله
وليت حنوطى من مشاشك والدم
ويا ليت سلمى فى القبور ضجيعتى
هنالك أو فى جنة أو جهنم
فليته والله تمنى لقاءها فى الدنيا ويعمل عملاً صالحاً ،
والله لا دخل على أبدا .

« وفى رواية أخرى أنه قال : أليس يقول :

ثم نبتها فهبت كعاباً طفلة ما تبين رجع الكلام
ساعة ثم إنها بعد قالت ويلتا ! قد عجلت يا بن الكرام
أعلى غير موعد جئت تسرى تتخطى إلى روس النيام ؟
فلو كان عدو الله إذ فجر كتم على نفسه ! لا يدخل والله
على أبدا » .

فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قال : جميل بن معمر العذرى ،
قال : أليس هو الذى يقول :

ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نمت يوافى لدى الموتى ضريحى ضريحها
فما أنا فى طول الحياة براغب إذا قيل قد سوى عليها صفيحها
أظل نهارى لا أراها ، ويلتقى مع الليل روحى فى المنام وروحها
اعزب به ، فوالله لا دخل على أبدا ، فمن غير من ذكرت ؟
قال : كثير عزة : قال : هو الذى يقول :

رهبان مدين والذين عهدتهم سيكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعزة ركعاً وسجودا
اعذب به ، فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قال : الأحوص
الأنصاري ، قال : أبعد الله ومحقه ، أليس هو القائل وقد أفسد
على رجل من أهل المدينة جارية هربت منه :

الله بيني وبين سيدها يفر غنى بها وأتبع
اعذب به ، فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قال : همام بن
غالب الفرزدق ، قال : أليس هو القائل يفخر بالزنا :
هما دلتاني من ثمانين قامة

كما انقض باز أقم الريش كاسره
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا
أحي يرحى أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الأسباب لا يشعروا بنا

ووليت في أعقاب ليل أبادره
اعذب به ، لا يظأ والله بساطي ، فمن بالباب غير من ذكرت ؟
قال : الأخطل التغلبي ، قال : أليس هو الذي يقول :

فلست بصائم رمضان عمرى ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بزاجر عساً بكوراً إلى بطحاء مكة للنجاح
ولست بقائم كالعير أدعو قبيل الصبح حي على الفلاح

ولكني سأشربها شمولاً وأسجد عند منبجج الصباح
اعزب به فوالله لا وطئ لي بساطاً أبداً وهو كافر ، فمن بالباب
غير من ذكرت ؟ قال : جرير بن الخطفي ، قال : أليس
هو القائل :

لولا مراقبة العيون أرينا مقل المها وسوالف الآرام
هل ينهيك أن قتلن مرقشاً أو ما فعلن بعروة بن حزام
ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام
طرفت صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة ، فارجعي بسلام
فإن كان لا بد فهذا ، فأذن لجرير فدخل وهو يقول :

إن الذي بعث النبي محمداً جعل الخلافة في إمام عادل
وسع الخلائق عدله ووفاءه حتى ارعوا وأقام ميل المائل
والله أنزل في القرآن فريضة لابن السبيل والفقير العائل
إني لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفس مولعة بحب العاجل
فلما مثل بين يديه قال : ويحك يا جرير ، اتق الله ولا
تقل إلا حقاً ، فأنشأ يقول :

أذكر الجهد والبلوى التي نزلت
أم أكتفي بالذي نبئت من خبري
كم باليمامة من شعناء أرملة
ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

ممن يعدك تكفى فقد والده
 كالفرخ فى العش لم ينهض ولم يطر
 يدعوك دعوة ملهوف كأن به
 خبلا من الجن أو مساً من البشر
 خليفة الله ماذا تأمرون بنا
 لسنا إليكم ، ولا فى دار منتظر
 ما زلت بعدك فى هم يورقنى
 قد طال فى الحى إصعادى ومنحدرى
 لا ينفع الحاضر المجهود بادينا
 ولا يعود لنا باد على حضر
 إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلقنا
 من الخليفة ما نرجو من المطر
 نال الخلافة إذ كانت له قدراً
 كما أتى ربه موسى على قدر
 هذى الأرامل قد قضيت حاجتها

فمن حاجة هذا الأرملة الذكر
 فقال : يا جرير ، والله لقد وليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة
 هيزم ، فمائة أخذها عبدالله (ابنه) ، ومائة أخذتها أم عبدالله ،
 يا غلام أعطه المائة الباقية ، فأخذها وقال : والله يا أمير

المؤمنين إنها لأحب مال كسبته إلى .

وفى خبر ثان : أن عمر قال له : يا بن الخطفي ، أمن أبناء المهاجرين أنت فنعرف لك حقهم ، أم من أبناء الأنصار فيجب لك ما يجب لهم ، أم من فقراء المسلمين فتأمر صاحب صدقات قومك فيصلك بمثل ما يصل به قومك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أنا بواحد من هؤلاء ، وإني لمن أكثر قومي مالا ، وأحسنهم حالا ، ولكني أسألك ما عودتني الخلفاء : أربعة آلاف درهم وما يتبعها من كسوة وحملان ، فقال له عمر : كل امرئ يلتق فعله ، وأما أنا فما أرى لك في مال الله حقاً ، ولكن انتظريخرج عطائي ، فأنظر ما يكفي عيالي سنة منه فأدخره لهم ، ثم إن فضل فضل صرفناه إليك ، فقال جرير : لا ، بل يوفر أمير المؤمنين ويحمد ، وأخرج راضياً ، قال : فذلك أحب إلي ، فخرج ، فلما ولي قال عمر : إن شر هذا ليتقى ، ردوه إلي ، فردوه فقال : إن عندي أربعين ديناراً وخلعتين ، إذا غسلت إحداهما لبست الأخرى ، وأنا مقاسمك ذلك ، على أن الله جل وعز يعلم أن عمر أحوج إلى ذلك منك ، فقال له : قد وفرك الله يا أمير المؤمنين ، وأنا والله راض ، قال : أما وقد حلفت فإن ما وفرته على ولم تضيق به معيشتنا آثر في نفسي من المدح ، فامض مصاحباً .

وفي خبر ثالث : أن عمر لما سأله : أمن أبناء المهاجرين أنت ... قال : يا أمير المؤمنين فلاني ابن سبيل ، قال : لك ما لأبناء السبيل : زادك ونفقة تبلغك وتبدل براحتك إن لم تحملك ، فألح عليه ، فقال له بنو أمية : يا أبا حذرة ، مهلا عن أمير المؤمنين ونحن نرضيك من أموالنا عنه ، فجمع له بنو أمية مالا عظيماً ، فما خرج من عند خليفة بأكثر مما خرج من عند عمر .

فلما خرج من عنده قال له الشعراء : ما وراءك ؟ قال : ما يسوءكم ، خرجت من عند رجل يعطى الفقراء ، ويمنع الشعراء ، وأنا مع ذلك عنه راض ، ثم أنشأ يقول :

رأيت رقي الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجن راقيا
وأنت ترى مما قدمناه لك أن عمر كان بصيراً بشعر هؤلاء الشعراء
الذين انتجعوه للعطاء ، عالماً بما يحويه من هتات ومثالب ،
ناقداً لما يشوبه من انحراف عن الحادة ، وزيف عن سنن الخلق
الكريم ، والدين القويم ، وذلك يدلوك بوضوح على مكانته
الأدبية السامية ، وأنه كان يعنى بقراءة ما ينتجه شعراء عصره ،
وأنه كان يحفظ من أشعارهم وينقدها ، وأنه كان لا يحب من
الشعر إلا ما كان حقاً عفا .

وإن فيما أورده لكل منهم من الآيات التي أخذها عليهم ،
لدليلا على أنه كان يحفظ لهم غيرها مما يستجاد ولا يعاب ،
إذ لا يعقل أن يكون قد قصر علمه بشعرهم على تلك الآيات
المعدودة المشينة فحسب !

وشيء آخر تراه في تلك القصة : وهو أن عمر كان لا يرى
للشعراء في بيت مال المسلمين حقاً ، وأن تلك السنة التي استنها
الخلفاء الأمويون قبله من إفاضة العطاء على المداح من الشعراء ،
سنة غير محمودة ، وإسراف في مال الله سوف يسألهم الله عنه ،
واستمع إليه وهو يقول لحرير حين سأله ما عوده الخلفاء من
الجوائز : كل امرئ يلتقى فعله . وماذا يعمل وهو يرى أن جريراً
يتقى شره ، ويخاف لسانه ؟ إنه لا مناص له من أن يرضيه
ويقطع لسانه بالعطاء ، ولكنه يأبى عليه دينه أن يرضيه على
حساب الأمة ، ومن أموال الأمة ، فارتضى أن يعطيه من
عطائه الخاص ، ويشاطره ماله الخاص ، على شدة افتقاره إليه .

* * *

وهذا موقف آخر له مع الشعراء يشبه الموقف السالف .
حدث كثير عزة قال :

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة قدمت أنا ونصيب
والأحوص ، وكل واحد منا يدل بسابقته عند عبد العزيز بن

مروان ، وإخائه لعمر ، فكان أول من لقينا مسلمة بن عبد الملك ، وهو يومئذ قتي العرب ، وكل واحد منا ينظر في عطفه لا يشك أنه شريك الخليفة في الخلافة ، فأحسن ضيافتنا ، وأكرم مثوانا ، ثم قال : أما علمتم أن إمامكم لا يعطي الشعراء شيئاً ! قلنا : قد جئنا الآن ، فوجه لنا في هذا الأمر وجهاً ، فقال : إن كان ذو دين من آل مروان قد ولي الخلافة فقد بقي من ذوى دنياهم من يقضى حوائجكم ، ويفعل بكم ما أنتم له أهل ، لكم عندى ما تحبون ، فأقمنا على بابہ أربعة أشهر لا نصل إليه ، وجعل مسلمة يستأذن لنا فلا يؤذن ، فقلت : لو أتيت المسجد يوم الجمعة فتحفظت من كلام عمر شيئاً ، فأتيت المسجد ، فسمعته يقول فى خطبة له :

« لكل سفر زاد لا محالة ، فتزودوا من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فعمل طلباً لهذا ، وخوفاً من هذا ، ولا يطولن عليكم الأمد فتفسو قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، واعلموا أنه إنما يطمئن بالدنيا من وثق بالنجاة من عذاب الله فى الآخرة ، فأما من لا يداوى جرحاً إلا أصابه جرح من ناحية أخرى ، فكيف يطمئن بالدنيا ، أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى نفسى عنه ، فتخسر

صفقتي ، وتبدو علي ، وتظهر مسكنتي ، في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق .

فارتج المسجد بالبكاء وبكى عمر ، حتى بل ثوبه ، حتى ظننا أنه قاض نحيبه ، فبلغت إلى صاحبي فقلت : جددا لعمر من الشعر غير ما أعددناه ، فإن الرجل أخرى ، وليس بدنيوى . ثم إن مسلمة استأذن لنا يوم جمعة بعد ما أذن للعامة ، فدخلنا فسلمنا عليه بالخلافة ، فرد علينا ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، طال الثواء ، وقلت الفائدة ، وتحدثت بجفائك إيانا وفود العرب ، فقال : يا كثير ، أما سمعت إلى قول الله عز وجل في كتابه :

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » أفن هؤلاء أنت ؟ فقلت له وأنا ضاحك : أنا ابن سبيل ومنقطع به ، قال : أولست ضيف أبي سعيد ؟ قلت : بلى ، قال : ما أحسب من كان ضيف أبي سعيد ابن سبيل ولا منقطعا به ، ثم استأذنته في الإنشاد ، فقال : قل ، ولا تقل إلا حقاً ، فإن الله سائلك ، فقلت : وليت فلم تشتم عليا ، ولم تخف

بريأ ، ولم تتبع مقالة مجرم

وقلت فصدقت الذى قلت بالذى
 فعلت ، فأضحى راضياً كل مسلم
 ألا إنما يكنى الفتى بعد زيغهِ
 من الأود الباقى ثقاف المقوم
 لقد لبست لبس الهلوك ثيابها
 وأبدت لك الدنيا بكف ومعصم
 وتومض أحياناً بعين مريضة
 وتبسم عن مثل الجمان المنظم
 فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما
 سقتك مدوفاً من سمام وعلقم
 وقد كنت من أجبالها فى ممنع
 ومن بحرهما فى مزبد الموج مفعم
 وما زلت سباقاً إلى كل غايّة
 صعدت بها أعلى البناء المقدم
 فلما أتاك الملك عفوا ولم يكن
 لطالب دنيا بعده من تقدم
 تركت الذى يفنى وإن كان موقفاً
 وآثرت ما يبقى برأى مصمم

فأضررت بالفاني وشمرت للذي
أمامك في يوم من الهول مظلم
ومالك (أن كنت الخليفة) مانع
(سوى الله) من مال رعيت ولا دم
سما لك هم في الفؤاد مؤرق
صعدت به أعلى المعالي بسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها
مناد ينادى من فصيح وأعجم
يقول أميز المؤمنين ظلمتي
بأخذ لدينار ولا أخذ درهم
ولا بسط كف لامرئ ظالم له
ولا السفك منه ظلما ملء محجم
فلو يستطيع المسلمون لقسموا
لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فعشت به ما حج لله راكب
مغذ مطيف بالمقام وزمزم
فأربح بها من صفقة المبايع
وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم
فقال لى : يا كثير إن الله سائلك عن كل ما قلت ، ثم تقدم

الأحوص فاستأذنه ، فقال : قل ولا تقل إلا حقاً ، فإن الله
سائلك ، فأنشده :

وما الشعر إلا خطبة من مؤلف
بمنطق حق أو بمنطق باطل
فلا تقبلن إلا الذى وافق الرضا
ولا ترجعنا كالنساء الأرامل
رأيناك لم تعدل عن الحق يمنة
ولا يسرة فعل الظلوم المجادل
ولكن أخذت القصد جهداً كله
وتقفو مثال الصالحين الأوائل
فقلنا (ولم نكذب) بما قد بدا لنا
ومن ذا يرد الحق من قول قائل
ومن ذا يرد السهم بعد مضائه
على فوقه إذ عار من نبل نابيل
ولولا الذى قد عودتنا خلائف
غطاريف كانوا كالليوث البواسل
لما وخذت شهراً برحلى جصرة
تفلّ متون اليد بين الرواحل.

ولكن رجونا منك مثل الذى به
حيننا قديماً من ذويك الأفاضل
فإن لم يكن للشعر عندك موضع
وإن كان مثل الدر في نظم قائل
وكان مصيباً صادقاً لا يعيبه
سوى أنه يبنى بناء المنازل
فإن لنا قربى ومحض مودة
وميراث آباء مشوا بالمناصل
فذاذوا عدو السلم عن عقر دارهم
وأرسوا عمود الدين بعد تمايل
وقبلك ما أعطى الهنيذة جلة
على الشعر « كعبا » من سديس وبازل
رسول الإله المستضاء بنوره
عليه سلام بالضحى والأصائل
فكل الذى عدت يكفيك بعضه
ونيلك خير من مجور السوائل
فقال له عمر : يا أحوص إن الله سائلك عن كل ما قلت .
ثم تقدم إليه نصيب فاستأذن في الإنشاد ، فأبى أن يأذن له
وغضب غضباً شديداً وأمره بالحقاق بدابق ، وقال لنا : ما عندي

ما أعطيكم ، فانتظروا حتى يخرج عطائي فأواسيكم منه ، فانتظروا
حتى خرج ، فأمر لي وللأحوص بثلاثمائة درهم ، وأمر لنصيب بمائة
وخمسين درهما ، فما رأيت أعظم بركة من الثلاث المائة التي
أعطاني ، ابتعت بها وصيفة فعلمتها الغناء فبعتها بألف دينار .

وهنا مسألة تستوقف الباحث وتسرعى نظره ، فقد اضطربت
الروايات بشأن الأحوص في عهد خلافة عمر ، فالخبران
السالفان يثبتان أنه وفد على عمر لما استخلف ، والأول ينيء
أنه لم يأذن له في الدخول ، وقال فيه : أبعد الله ومحقه ، والثاني
ينيء أنه أذن له ، وأنه أنشده لاميته السابقة ، وهاك استمع
خبراً ثالثاً ينيء أنه كان بمنفاه في دهلك إبان خلافة عمر !

ذكروا أن الأحوص كان ينسب بنساء ذوات أخطار من
أهل المدينة ، ويتغنى في شعره معبد ومالك ، ويشيع ذلك في
الناس ، فهي فلم ينته ، فشكى إلى عامل سليمان بن عبد الملك
على المدينة ، وسأله الكتاب فيه إليه ، ففعل ذلك ، فكتب
سليمان إلى عامله يأمره أن يضربه مائة سوط ويقيمه على البلس
للناس ، ثم يصيره إلى دهلك ففعل ذلك به ، فتوى هناك
سلطان سليمان بن عبد الملك .

ثم ولي عمر بن عبد العزيز فكتب إليه يستأذنه في القدوم
ويمدحه ، فأبى أن يأذن له ، وكان قد كتب إليه :

أيا راكباً إما عرضت فبلغن (هديت) أمير المؤمنين رسائل
وقل لأبي حفص إذا ما لقيته لقد كنت نفاعاً قليل الغوائل
أفى الله أن تدنوا « ابن حزم » وتقطعوا

قوى حرمت بيننا ووصائل
وكيف ترى للعيش طيباً ولذة وخالك أمسى موثقاً في الحبائل
وما طمع الحزى في الجاه قبلها إلى أحد من آل مروان عادل
وشى وأطاعوه بنا وأعانه على أمرنا من ليس عنا بغافل
وكنت أرى أن القرابة لم تدع ولا الحرمات في العصور الأوائل
إلى أحد من آل مروان ذى حجي

بأمر كرهناه مقالا لقائل
يسر بما أنهى العدو وإنه كنافلة لى من خيار النوافل
فهل ينقصنى القوم أن كنت مسلماً

بريثاً بلائى فى ليال قلائل
ألا رب مسرور بنا سيغيظه

لدى غب أمر عضه بالأنامل
رجا الصلح منى آل حزم بن فرتى

على دينهم جهلا ولست بفاعل
ألا قد يرجون الهوان فلأنهم

بنو حبق ناء عن الخير فائل

على حين حل القول بي وتنظرت
عقوبتهم مني رعوس القبائل
فن يك أمسى سائلا بشماتة

بما حل بي أو شامتاً غير سائل
فقد عجمت مني العواجم ماجداً
صبوراً على عضات تلك التلائل

إذا نال لم يفرح ، وليس لنكبة
إذا حدثت بالخاضع المتضائل

فرحل رجال من الأنصار إلى عمر بن عبد العزيز فكلّموه فيه
وسألوه أن يقدمه وقالوا له : قد عرفت نسبه وموضعه وقديمه ،
وقد أخرج إلى أرض الشرك ، فنطلب إليك أن ترده إلى حرم
رسول الله صلى الله عليه وسلم ودار قومه ، فقال لهم عمر : فمن
الذي يقول :

فما هي إلا أن أراها فجاءة فأبتهت حتى ما أكاد أجيب
قالوا : الأحوص ، قال : فمن الذي يقول :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم ما درت حيث أدور
وما كنت زواراً ولكن ذا الهوى إذا لم يزر لا بد أن سيزور
قالوا : الأحوص ، قال : فمن الذي يقول :

كأن لبني صبير غادية أو دمية زينت بها البيع

الله بينى وبين قيمها يفر منى بها وأتبع
قالوا : الأحوص ، قال : بل الله بين قيمها وبينه ، فمن
الذى يقول :

سيتبقى لها في مضمرة القلب والحشا

سريرة حب يوم تبلى السرائر
قالوا : الأحوص ، قال : إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول ،
والله لا أردّه ما كان لى سلطان . فمكت هناك ولاية عمر وصدرأ
من ولاية يزيد بن عبد الملك ، ثم رده يزيد وخلق سبيله .
وذلك أن الأحوص دس إلى حباية جارية يزيد فغتنه
قوله فيه :

كريم قريش حين ينسب ، والذي

أقرت له بالملك كهلا وأمردا
وليس وإن أعطاك فى اليوم مانعاً
إذا عدت من أضعاف إعطائه غدا
أهان تلاد المال فى الحمد ، إنه

إمام هدى ، يجرى على ما تعودا
تشرف مجدأ من أبيه وحده

وقد ورثا بنيان مجد تشيدا
فقال يزيد : ويلك يا حباية ! من هذا من قريش ؟ قالت :

ومن يكون ؟ أنت هوى أمير المؤمنين ، فقال : ومن قال هذا
الشعر ؟ قالت : الأحوص ، يمدح به أمير المؤمنين ، وكلمته
فيه ، فأمر به أن يقدم من دهلك ، وأمر له بمال وكسوة .
وروى أن عمر لما ولي الخلافة أدنى زيد بن أسلم وجفا
الأحوص ، فقال له الأحوص :

ألست أبا حفص (هديت) مخبري
أفي الحق أن أقصى ويدني ابن أسلما ؟
ألا صلة الأرحام أدنى إلى التقى
وأظهر في أكفائه لو تكرما
وكننا ذوى قربى لديك فأصبحت
قرابتنا ثدياً أجد مصرما
وكنت وما أملت فيك كبارق
لوى قطره من بعد ما كان غيما
وقد كنت أرجى الناس عندي مودة
ليالى كان الظن غيباً مرجما
أعدك حرزاً إن خشيت ظلامه
ومالا ثرياً حين أحمل مغرما
تدارك بعتي عاتباً ذا قرابة
طوى الغيظ لم يفتح بسخط له فما

وأكثر من ذلك ما يروى من أن عمر هو الذى نفاه إلى دهلك ،
 ذكروا أنه لما ولى الخلافة كتب إلى عامله على المدينة : قد
 عرفت الأحوص بالحبث والشر فإذا أتاك كتابي هذا ، فاشدده
 واحمله إلى ، فحملة إليه فأمر بنفيه إلى دهلك فبنى إليها فلم يزل
 بها . . . إلى آخر الرواية المتقدمة .

ونحن بعد أن عرضنا للقارئ هذه الروايات المختلفة ، نرجح
 أن يكون الأحوص قد بنى قبل استخلاف عمر وأن عمر أبى
 أن يقدمه من منفاه ، أو أن يكون هو الذى نفاه ، لأن ذلك
 هو الأشبه بعمر ، والملائم لهجه وخلقه ، وقد رأيت فيما قدمنا
 أنه إبان ولايته على المدينة بنى عمر بن أبى ربيعة إلى دهلك ،
 للسبب الذى من أجله بنى الأحوص إليها ، وهو الجنوح إلى
 هجر القول والإسفاف فى الغزل .

ونعود الآن إلى بقية أخبار الشعراء مع عمر فنقول :
 ذكروا أنه لما مات سليمان بن عبد الملك وولى عمر
 الخلافة ، وفد إليه عوفى القوافى ، وقال شعرائي فيه سليمان
 ومدح عمر ، فلما دخل عليه أنشده إياه ، وفى مدحه يقول :
 قد ابتلى الله بخير خلقه ألقى إلى خير قريش وسقه
 يا عمر الخير الملقى وفقه سميت بالفاروق فافرق فرقه
 وارزق عيال المسلمين رزقه واقصد إلى الجود ولا تنقه

بحرك عذب الماء ما أعقه ربك ، فالمحروم من لم يسقه
 فقال له عمر : لسنا من الشعر في شيء ، ومالك في بيت
 المال حق ، فألح عوف يسأله ، فقال : يا مزاحم انظر
 فيما بقي من أرزاقنا فشاطره إياه ، ولنصبر على الضيق إلى
 وقت العطاء ، فقال له عبد الرحمن بن سليمان بن عبد الملك :
 بل توفر أمير المؤمنين ، وعلى رضا الرجل ، فقال ، ما أولاك
 بذلك ، فأخذ بيده وانصرف به إلى منزله ، وأعطاه حتى
 رضى .

وحضر عمر جنازة فلما انصرف اعترضه عوف القوافي
 على بعير له فصاح به :
 أجبني أبا حفص لقيت محمداً على حوضه مستبشراً وراكا
 فقال له عمر : لبيك ، ووقف ووقف الناس معه ثم قال
 له : فله ؟ فقال :

فأنت امرؤ كلنا يديك مفيدة شمالك خير من يمين سواكا
 قال : ثم مه ؟ فقال :

بلغت مدى المجرين قبلك إذ جروا
 ولم يبلغ المجرون بعد مداكا
 فجداك لا جدين أكرم منهما
 هناك تنهى المجد ثم هناك

فقال له عمر : ألا ، أراك شاعرا ، مالك عندي من حق .
قال : لا ، ولكنني سائل وابن سبيل وذو سهمة ، فالتفت عمر
إلى قهرمانه فقال : أعطه فضل نفقتي .

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك كان محسناً إلى أعشى بني
بنى تغلب ، فلما ولي عمر الخلافة وفد إليه ومدحه فلم يعطه شيئاً
وقال : ما أرى للشعراء في بيت المال حقاً ، ولو كان لهم فيه حق
لما كان لك لأنك امرؤ نصراني ، فانصرف الأعشى وهو يقول :

لعمري لقد عاش الوليد حياته إمام هدى لا مستزاد ولا نزر
كأن بني مروان بعد وفاته جلاميد لاتندی وإن بلها القطر
وقال أبو عمرو بن العلاء : أول ما حرك من القطامي ورفع من
ذكره أنه قدم في خلافة الوليد بن عبد الملك دمشق ليمدحه ،
ف قيل له : إنه بخيل لا يعطى الشعراء ، وقيل بل قدمها في خلافة
عمر بن عبد العزيز فقيل له : إن الشعر لا ينفق عند هذا ، ولا
يعطى شيئاً ، وهذا عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك فامدحه ،
فمدحه بقصيدته التي مطلعها :

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطول
فقال له : كم أملت من أمير المؤمنين ؟ قال : أملت أن
يعطيني ثلاثين ناقة ، فقال : قد أمرت لك بخمسين ناقة موقرة
براً وتمراً وثياباً ثم أمر بدفع ذلك إليه .

أخلاقه

كان عمر بن عبد العزيز كريم الشئائل ، حميد السجايا ، رفيع الخلق فاضله ، ولا نغالى إذا قلنا إنه يعد فى عصره المثل الأعلى للرجل الكامل ، إذ اجتمع له من مكارم الأخلاق وشريف الآداب ما لم يعرف لأحد من معاصريه ، ولا غرو فقد كان يجرى فى ذلك على عرق ، ويحتذى مثال جده العبقري العظيم عمر الفاروق رضى الله عنه ، وها نحن أولاء نورد لك طرفاً من أخباره تتبين منه فى جلاء أنه بلغ الذروة من شم الشيم ، وعالى الهمم ، فنقول :

* * *

كان عمر لا ينكث وعده ، ولا ينقض عهده ، يعتقد الحق فيجاهر به ولا يتهيب فيه غضبة السلطان ونقمته ، فقد أراد الوليد بن عبد الملك إبان خلافته على أن يبايع لابنه عبد العزيز ويخلع أخاه سليمان من ولاية العهد ، فقال له : يا أمير المؤمنين إنا بايعنا لكما فى عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك ! ودخل عمر على سليمان بن عبد الملك فى خلافته ، وعنده أيوب

ابنه وهو يومئذ ولي عهده ، قد عقد له من بعده ، فجاء إنسان يطلب ميراثاً من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يرثن في العقار شيئاً ، فقال عمر بن عبد العزيز : سبحان الله ، وأين كتاب الله ! فقال سليمان : يا غلام اذهب فأنتي بسجل عبد الملك بن مروان الذي كتب في ذلك . فقال له عمر : لكأنك أرسلت إلى المصحف ! قال أيوب بن سليمان : والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين فلا يشعر حتى يفارقه رأسه ، فقال له عمر : إذا أفضى الأمر إليك وإلى أمثالك كان ما يدخل على الإسلام أشد مما يخشى عليكم من هذا القول ، فقال سليمان لابنه أيوب : مه ، لأبي حفص تقول هذا ؟ فقال عمر : والله لئن جهل علينا يا أمير المؤمنين ما حلمنا عنه .

وكان عمر ينهى سليمان بن عبد الملك عن قتل الحرورية ويقول : ضمنهم الجبوس حتى يحدثوا توبة ، فأتى سليمان بحرورى مستقمل ، فقال سليمان : على بعمر بن عبد العزيز ، فلما أتى عمر عاود سليمان الحرورى فقال : ماذا تقول ؟ قال : ماذا أقول يا فاسق يا بن الفاسق ! فقال سليمان لعمر : ما ترى يا أبا حفص ؟ فسكت ، فقال : أقسمت عليك لتخبرنى ماذا ترى عليه ؟ فقال : أرى أن تشتمه كما شتمك ، وتشم أباه كما شتم أباك ،

فقال سليمان ، ليس إلا ؟ قال : ليس إلا ، فلم يرجع سليمان إلى قوله ، وأمر بالحرورى فضرب عنقه .

فأنت ترى أن عمر قد أخذ في حكمه بمبدأ المساواة المطلقة ، ولم يفرق في موقف الخصومة بين الخليفة الأكبر — وهو ابن عمه وأمس الناس رجماً به — وبين الحرورى البادئ بجرمه ، المقذع في شتمه ، ولعلك تعيب على عمر أنه سكت وأحجم عن الإدلاء برأيه حين سأله سليمان رأيه ، فلما عزم عليه أبدى به ، وجوابنا عن ذلك أن إحجامه لم يكن عن جبن ولا خشية ، وإنما تخرج من الإجابة لما يستيقنه من رأى سليمان في الحرورية وهو القتل لا سواه — يدلك على ذلك صدر هذا الخبر وهو أن عمر كان ينهأ عن قتلهم — فرأى أنه مهما يشر عليه برأى في أمر ذلك الحرورى فلن يستمع له ولن يعدو ما يكتنه بين جوانحه له ولأمثاله من القتل والبور ، فأثر الصمت ، حتى استحلفه فحكم بما يراه حقاً وعدلاً ، وقد تحقق ما كان عمر يتوقعه من سليمان إذ رفض حكمه ولم يصيح له ، بل رده مستقلاً إياه ، مستنكراً . له ، بقوله « ليس إلا ؟ » ثم نفذ ما كان ينتويه فضرب عنق خصمه

هذه نبذة يسيرة من أخلاقه قبل أن يلي الخلافة ، وكذلك كان بعد أن وليها ، فقد تم على ما ألفه من الأخلاق النبيلة

والشماثل الغراء ، وكان أبرز ما فيه رعايته الحق وذوده عنه ، وإقراره العدل بين رعيته ، ورفع المظالم عن كواهلهم ، وقد قدمنا لك فصلاً مطولاً في هذا الصدد ، وفيه ترى كيف انتصف بنفسه من نفسه ومن زوجه ومن أهل بيته ! وقد بكى يوماً فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : تلومني أن أبكي ، ولو أن سخلة هلكت على شاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة ؟ وقد رووا كثيراً من أخباره المنبئة بمبالغته في التورع والتحرج من أن ينال شيئاً من غير حله ، من ذلك أنه حمل إليه سلتان من الرطب ، فقال : غلام جيء بهما ؟ قيل : على دواب البريد ، قال : فما جعلني الله أحق بدواب البريد من المسلمين ، أخرجوهما فيبعوهما واجعلوا ثمنهما في علف دواب البريد ، فغمز ابن أخيه الرسول وقال له : اذهب فإذا قامت على ثمن فخذهما لي ، فأخرجتنا إلى السوق فبلغنا أربعة عشر درهماً ، فجاء بهما إلى ابن أخيه ، فأعطاه ثمنهما ، وقال : اذهب بهذه الواحدة إلى أمير المؤمنين ، وحبس لنفسه الأخرى ، فأتى عمر بها فقال : ما هذا ؟ فأخبره الخبر فقال : الآن طاب لي أكله ، وألقى ثمن السلتين في بيت المال . وجاءه تفاح من النوى ، فجعل يقسمه بين المسلمين ، فجاء ابن له صغير فتناول تفاحة ، فانتزعها من فيه ، فسعى إلى أمه مستعبراً باكياً ، فأرسلت إلى السوق فاشتريت له تفاحاً ، فلما

رجع عمرو وجد ربح التفاح ، فقال : يا فاطمة هل أتيت شيئاً من هذا النىء ؟ قالت : لا ، وقصت عليه القصة ، فقال : والله لقد انتزعتهما من ابني لكأنما انتزعتها من قلبي ، لكن كرهت أن أضيع نفسي من الله عز وجل بتفاحة من فيء المسلمين . وقال يوماً : أسخنوا لى ماء أغتسل به للجمعة ، فقليل له : ما عندنا حطب نوقده ، وذهبوا بالقمقم إلى مطبخ المسلمين وجاءوا به وهويفور ، فقال : ألم تخبروني أنه ليس عندكم حطب ؟ لعلكم ذهبتم به إلى مطبخ المسلمين ! قالوا : نعم ، قال : ادعوا لى صاحب المطبخ ، فلما جاءه قال له : قيل لك هذا قمقم أمير المؤمنين فأوقدت تحته ، قال : لا والله يا أمير المؤمنين ما أوقدت تحته عوداً واحداً وإن هو إلا جمر لو تركته لحمد حتى يصير رمادا ، قال : بكم أخذت الحطب ؟ قال : بكذا ، قال : أدوا إليه ثمنه .

ووفد عليه بريد من بعض الآفاق فأنتهى إلى بابه ليلاً ، واستأذن عليه فأذن له ، ودعا بشمعة غليظة فأوقدت ، وجعل يسأله فيحفي السؤال عن حال أهل البلد ومن به من المسلمين وأهل العهد ، وكيف سيرة العامل ، وكيف الأسعار ، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار ، وأبناء السبيل والفقراء ، وهل أعطى كل ذى حق حقه ، وهل له شاك ؟ فأنبأه عن جميع ما سأل ،

حتى إذا فرغ عمر من مسأله قال له : يا أمير المؤمنين ، كيف حالك في نفسك وبدنك وكيف عيالك ؟ فنفخ عمر الشمعة فأطفأها بنفخته وقال : يا غلام علىّ بسراج ثم قال له : سل عما أحبيت ، فسأله فأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته ، فعجب البريد لإطفائه الشمعة وكلمه في ذلك فقال : يا عبدالله ، إن الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين ، وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم ، فكانت تلك الشمعة تقد بين يدي فيما يصلحهم وهي لهم ، فلما صرت لشأني وأمر عيالي ونفسي أطفأت نار المسلمين .

وكان لا يحابي في الحق قريباً لقربته ، ولا عظيماً لعظمته ، بل يحق الحق للحق ، ويسوى في عدله بين الجميع ، وقد خاصم مسلمة بن عبد الملك عنده أهل دير إسحق ، فقال له عمر — وهو ابن عمه وصهره — لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدي ، ولكن وكل بخصومتك من شئت ، وإلا فجاث القوم بين يدي ، فوكل مولى له بخصومته ، ففضى عليه .

ومما يدل على تواضعه ما رواه رجاء بن حيوة قال : سمعت ليلة عنده فاعتل السراج ، فقامت لأصلحه ، فأقسم على لأقعدن ، وقام هو فأصلحه ، فقلت له : تقوم أنت يا أمير المؤمنين ! قال : وما ضربني ؟ قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ،

ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز ، ولثوم بالرجل أن يستخدم ضيفه .

وكان يتقدم إلى الحرس إذا خرج عليهم ألا يقوموا له ويقول لهم : لا تبتدئوني بالسلام ، إنما السلام علينا لكم . وقال يوماً لرجل : من سيد قومك ؟ قال أنا ، قال : لو أنك كذلك لم تقله .

وقال بلجلسائه : من أراد أن يصحبنى فليصحبنى بخمس : يدلنى من العدل إلى ما لا أهتدى إليه ، ويكون لى على الخير عوناً ، ويبلغنى حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، ولا يغتاب عندى أحداً ، ويؤدى الأمانة التى حملها منى ومن الناس ، فإذا كان كذلك فحيلاً به وإلا فهو خرج من صحبى والدخول على . وقد قدمنا لك أنه كان مترفاً قبل أن يلى الخلافة فلما وليها خرج من جميع ما كان فيه من النعيم فى الملبس والمأكل والمتاع ، وجعل شعاره الزهد فى الدنيا والإعراض عن متعها الزائلة ، قال مالك بن دينار : « الناس يقولون مالك بن دينار زاهد ، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز ، أثنى الدنيا فتركها » ، وقد فاضت خطبه وكتبه بالوعظ والترهيد فى الدنيا والاستعداد للحساب يوم المآب .

وقال له بعض إخوته : يا أمير المؤمنين لو ركبت فترحت !

قال : كيف لى بعمل ذلك اليوم ؟ قال : يكون فى اليوم الذى
يليه ، قال عمر : لقد فدحنى عمل يوم واحد ، فكيف إذا اجتمع
على عمل يومين ؟
وكان يقول لأصحابه : « إياكم والمزاح ، فإنه يورث الضغينة
وينبت الغل » .

أمره بتدوين الحديث

كان الناس منذ بدء الإسلام يعتمدون في الحديث الشريف على الحفظ والاستظهار ، فلما كثرت الغزوات واتسعت الفتوح ومات من حملة الحديث من مات ، وتفرق باقيهم في البلاد ، وكان عند كل منهم شيء من الحديث ، وقد ينفرد بعضهم منه بما لم يسمعه سواه ، وقل الضبط وكاد يلتبس الباطل بالحق ، مست الحاجة إلى تدوينه .

وكان أول من أمر بتدوين الحديث عمر بن عبد العزيز إبان خلافته ، إذ رأى أن في تدوينه ضبطاً له وإبقاء عليه .

جاء في فتح الباري في باب كتابة العلم : « وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة ، بأمر عمر بن عبد العزيز ، ثم كثرت التدوين والتصنيف ، وحصل بذلك خير كثير » .

وجاء في متن البخاري على هامش الفتح في باب كيف يقبض العلم : « وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم — وكان عامله على المدينة كما قدمنا — : « انظر ما كان من حديث

رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فإني خفت دروس العلم
وذهاب العلماء» .

قال في الفتح : وقد رويت هذه القصة بلفظ : « كتب
عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق : انظروا حديث رسول الله صلى
الله عليه وسلم فاجمعوه » .

وفاته

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركتهم عالة ، ولا بد من شيء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إلىّ أو إلى نظرائي أهل من بيتك ، لكفيتك مثونتهم إن شاء الله ، فقال عمر : أجلسوني ، فأجلسوه ، فقال : الحمد لله ، أبالله تخوفني يا مسلمة ! أما ما ذكرت من أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة ، فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم ولم أكن لأعطيهم حقاً هو لغيرهم ، وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي ، فإن وصي وولي فيهم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله فسيجعل الله له من أمره يسراً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غير وفجر فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله ، ادعوا لي بني — وهم يومئذ بضعة عشر ذكراً — فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه ، حتي اغرورقت عيناه بالدموع ، ثم قال : بنفسي

فتية تركتهم ولا مال لهم ! يا بني إني قد تركتكم من الله بخير ،
 إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب
 إن شاء الله ، يا بني إني ميلت رأيي بين أن تستغنوا ويدخل
 أبوكم النار ، وبين أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة ، فكان أن
 تفتقروا ويدخل الجنة أحب إليه من أن تستغنوا ويدخل النار ،
 قوموا يا بني عصمكم الله ورزقكم . قالوا : فما احتاج أحد
 من أولاد عمر ولا افتقر .

وتوفي رحمه الله في رجب سنة ١٠١ هـ وكانت خلافته سنتين
 وخمسة أشهر ، ومات وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر .

مصادر الترجمة

تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر بن جرير الطبري
الجزء الثالث - الثامن

تاريخ الكامل لعز الدين بن الأثير
الجزء الخامس

مروج الذهب للمسعودي
الجزء الثاني

الإمامة والسياسة لابن قتيبة
الجزء الثاني

البداية والنهاية لابن كثير
الجزء التاسع

الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني
الجزء الأول - الثاني -

الرابع - السابع - الثامن

العاشر - السابع عشر -

الثامن عشر - التاسع

عشر - العشرون

سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي

سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم

شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
المجلد الثالث - الرابع

خزانة الأدب للبغدادى
الجزء الثاني

العقد الفريد لابن عبد ربه	الجزء الأول—الثاني—الثالث
البيان والتبيين للجاحظ	الجزء الثاني — الثالث
صبح الأعشى للقلقشندي	الجزء التاسع
معجم البلدان لياقوت الحموي	الجزء السادس
فتوح البلدان للبلاذري	
العمدة لابن رشيق القيرواني	الجزء الأول
وفيات الأعيان لابن خلكان	الجزء الأول
النجوم الزاهرة لابن تغري بردي	الجزء الأول
الكامل للمبرد	الجزء الأول
سرح العيون لابن نباتة	
الشعر والشعراء لابن قتيبة	
الفخري لابن طباطبا	
صحيح الإمام البخاري	الجزء الأول
فتح الباري لابن حجر	الجزء الأول
ديوان جرير	
الحسن البصري لابن الجوزي	

٨٣	عمر والشعراء أيام الخلافة
١٠٦	أخلاقه
١١٤	أمره بتدوين الحديث
١١٦	وفاته

١١٩	مصادر الترجمة
-----	---	---	---	---	---------------



مطبوعات مصرية

المسند (جزء رابع) للإمام أحمد بن حنبل

شرح الأستاذ أحمد محمد شاكر

الكتاب الذي جعله مؤلفه إماماً للناس يرجعون إليه في
تعرف السنة، وهو كالأصل لكتب الحديث . ٨٠ قرشاً

البندقية تأليف المؤرخ الكبير شارل ديل

نقل هذا الكتاب إلى العربية الأستاذان أحمد عزت عبد
الكريم وتوفيق إسكندر وقد صدر بمقدمة لحضرة صاحب العزة
محمد شفيق غربال بك . وليس الكتاب تاريخاً ، وليس
قصة ، وليس أدباً ، وليس فناً ، وإنما هو جماع ذلك كله .
٦٠ قرشاً

نظرية الإدراك الحسى عند ابن سينا

تأليف الأستاذ محمد عثمان نجافى

بحث مجلوا آراء ابن سينا ويربط بينها وبين آراء المفكرين
الذين تقدموه والذين أتوا بعده ، كما يربطها بعلم النفس
الحديث . ٣٠ قرشاً



مطبوعات مصرية

ديودور الصقلي في مصر

نقله عن اليونانية الأستاذ وهيب كامل
أدق رواية أدبية ألقت منذ ٢٠٠٠ سنة عن مصر
وآثارها وتقاليدها . ٢٥ قرشاً

صوت العالم

للأستاذ ميخائيل نعيمة
مجموعة مقالات نفيسة لأديب لبنان الكبير يدوى فيها
صوت الإنسانية تتجاذبها المادة والروح . ٢٥ قرشاً

من الأدب المقارن

للأستاذ نجيب العقيق
دراسة رصينة تستقصى منابع الأدب وتشتمل على مقارنة
الغزل العربي والوصف والمدح ومذاهب القول بما هو من نوعها
في أدب الفرنجة ٢٥ قرشاً

طيف الوليد

للأستاذ عبد السلام رستم
دراسة دقيقة لحياة البحترى وسيرته وشخصيته وشعره
مع تناول تاريخ الذين اتصل بهم وحياة اللهو التي
سادت عصره ٢٠ قرشاً



مطبوعات حديثة

رتشرد الثانى لشكسبير ترجمة الأستاذ محمد عوض إبراهيم بك
درة أخرى من درر شكسبير تصور النضال بين رتشرد
وخلفه هنرى الرابع وتوازن بين سلوكيهما ، وتصور إرهاب
الإشراف وظلم الرعية فى عصره . ١٥ قرشاً

ديوان الشروق للأستاذ حسن كامل الصيرفى
مثال صادق للشعر الحديث فى أخيلته وفنونه وأساليبه ،
وفى تصويره خلجات النفس ومشاعرها من ألم وأمل وأثر
الجمال فيها . ٢٥ قرشاً

شاعر الطيارة فوزى المعلوف للأستاذ « البدوى المثلث »
تصوير دقيق لبيئة هذا النجم الذى ما كاد يلمع فى سماء
الشعر العربى الحديث حتى أفل ، ودراسة لسيرته وشعره ونبوغه ،
محلاة بقصيدته « شاعر فى طيارة » التى اشتهر بها . ٢٥ قرشاً

الدفاع عن الوطن للأستاذ اليوزباشى السيد فرج
يهدى شباب الجليل إلى واجبهم نحو وطنهم ، ويطلعهم
على المعارك الكبرى التى حصلت فى مصر ، ويعرفهم طرق
الاستعداد للحرب مدنياً وعسكرياً . ٢٠ قرشاً

إعادات طبع ظهرت حديثاً

٣٠	في الأدب الجاهلي	للدكتور طه حسين بك
٢٥	حديث الشعر والنثر	للدكتور طه حسين بك
٢٠	عبقريّة الإمام	للأستاذ عباس محمود العقاد
٢٥	العرب في أسبانيا	للأستاذ علي الجارم بك
٢٥	الملك الضليل	للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك
٢٠	رباعيات عمر الخيام	للأستاذ وديع البستاني

مترجم من
دار المعارف بمصر

أولادنا

- ١ عمرون شاه
- ٢ مملكة السحدر
- ٣ كريمة الدين البغدادى
- ٤ آله الزمكان

قصص حية رشيقة تغذي روح الطالب
وتجولوله في جميع مراحل النمو
عناصر المنفعة والثقافة وسمو النفس

الجموعة التي تجلب الكتاب الصالح إلى الطالب
فيقبل عليه صغيرا ويتعلق به كبيرا
ويكون له نعم الزاد في سفرة الحياة



تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك





دار المعارف بمصر

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

هدفها الأول نشر الثقافة عن طريق
الرقى بالكتاب العربى . وقد نالت
مطبوعاتها رواجاً منقطع النظير فى
مصر وفى جميع البلاد العربية لما
امتازت به من حسن الاختيار
وأناقة الإخراج واعتدال الثمن .

فرع الإسكندرية
٢ ميدان محمد

المحل الرئيسى بالقاهرة :
٧٠ شارع الفجالة

اقرأ

• عنوان هذه السلسلة خير ما يوجه
إلى الأفراد والجماعات ، بل هو خير ما وجه
إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآت .

• السلسلة الشهرية التوجيهية التي تعمل
منذ أكثر من خمس سنوات
على جعل الثقافة في متناول الجميع .

• نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهينة الثمن
كبيرة الفائدة في كل منزل
منها الشباب والشيوخ على

• تصدرها دار المعارف بمصر في طبعا
بمعاونة حضرات الدكتور طه ح
والاستاذ عباس محمود العقاد والاس

من النسخة ٥ قروش

٦٠ ملاً في فلسطين وشرق الأردن ٦٠ غر

٦٠ فلساً في العراق ٦٠ غر

Bibliotheca Alexandrina



0684680

61
sa